نظرية الولاية عند السلف

د. محمد شلبي شتيوي

مقدمـــة :

قصية الولاية قضية ظهرت بظهور الإسلام، لأن آيات القرآن الكريم تحدثت عن الولاية والأولياء في صور مختلفة ومتعددة، لكن هذه الولاية كانت في أول أمرها ولاية شرعية دينية قائمة على المناصرة في سبيل الله وإعلان كلمة الله، كانت ولاية يربط بين طرفيها الحب والتعاون والمناصرة للحق وفي الحق.

لكن هذا المفهوم الشرعي الواضح دخله التحريف والتأويل على يد الشيعة والمتصوفة، فأصبح - بفضل تأويلاتهم وتحريفاتهم - بعيدا عن الإسلام قريبا من مفاهيم الشرك والكفر كالقول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود . . الخ.

وقد تصدي لهذه الفئة المنحرفة أهل السنة والجماعة فبينوا انحرافهم عن منهج الإسلام العظيم وبعدهم عن الدين الذي جاء به محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم.

واستمر تيار التصوف المنحرف في امتداده ثم تطور من سيء إلى أسوأ حيث ظهرت الفِرق المتعددة التي تنتسب إلى الولاية، وكل فرقة تدعي استنادها إلى الكتاب والسنة، والولاية الحقة بريئة من هذه الإنحرافات، والادعاءات الكاذبة، والقرآن والسنة يتبرآن من هذه العناصر الدخيلة على الإسلام وتلك الشعارات والتأويلات التي شوهت الإسلام في نظر فئات كثيرة من الناس.

وورث عصرنا الحاضر هذه التيارات الصوفية المنحرفة، وانتشرت بين ربوع الوطن الإسلامي كثير من هذه الفرق التي تدعي الولاية باسم التصوف والزهد، والتقشف، والحب في الله، والتفاني في هذه المحبة.

وهذه القضية لها وجهان، لأن الولاية والزهد والتقشف . . الخ إما أن تكون هذه الألفاظ قائمة على أصول الكتاب والسنة، وحينئذ فهي طريق صحيح وطيب، وإما أن تكون بعيدة عن كتاب الله وسنة رسوله، وحينئد فهي انحراف وضلال وبعد عن الصراط المستقيم الذي جاء به محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة وأعظم التسليم.

وإنما كانت هذه الولاية الأخيرة ضلالا وانحرافا لأن صاحبها يخلط الحق بالباطل، والباطل بالحق، إذ يتغالى في مفهوم الولاية وتطبيقاتها فيدعي الفضل لغير أهله، وينسب النفع والضرّ لمن لاحول له ولاقوة، ويرفع أقواما قد تركوا الصالحات، وتكاسلوا عن اكتساب الحسنات بدعوى الوصول إلى أعلى الدرجات حتى سقطت عنهم التكاليف والتشريعات !

وبسبب هذا التطرف البعيد عن الحق ظهرت جماعات دينية أخرى تطعن في كل من يقال عنه إنه ولّي، دون تفريق بين من يستحق اسم الولاية ومن لايستحق ، وهذا أيضا تطرف وبعد عن الطريق القويم لأن فيه هضما لحق هؤلاء الذين سلكوا المنهج الصحيح وساروا على هدى الكتاب والسنة النبوية الشريفة، بل فيه محاربة لكثير من أولياء الله الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورُسُله وكانوا على صلة طيبة برب العالمين، يخافون الله في السر والعلن، يمتثلون أوامره، ويتقربون إليه بالطاعات، وينتهون عما نهى عنه فهو وليهم وهم أولياؤه، « ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ[1] » .
(البقرة/ ٢٥٧).

ومن منطلق الطلب الالهي الذي جاء في قوله تعالى «وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين» (الذاريات / ٥٥) وإحقاقا للحق الذي جاء به القرآن الكريم، ونطقت به السنة الشريفة في هذا الجانب، وإظهارا وتوضيحا لمذهب السلف الصالح في هذه القضية، كتبت هذا البحث لكي يتعرف المسلم :

أ ـ منهج القرآن الكريم والسنة النبوية في هذا الجانب ، ذلك المنهج الذي سار على هديه سلفنا الصالح عليهم رضوان الله أجمعين، فيستمسك بحبل الله المتين والعروة الوثقى فلا يحيد عن هذا الطريق قِيدَ أَنْمَلة .

ب ـ كي يكون على بصيرة بتلك المناهج الضالة التي وقعت في الافراط وغالت في هذه الولاية فيحذرها ويبتعد عنها وينصح إخوته في الدين بالاستمساك بطريق السلف الصالح لأنه الطريق الحق والمنهج الصحيح .

وقد كان منهجي في كتابه هذا البحث قائما على ما يلي :

١ ـ الاهتداء أولا بكتاب الله وسنة رسوله واستقاء المعلومات منهما بقدر الإمكان دون تأويل أو تعطيل .

٢ ـ الاستعانة بكتب السلف الصالح في هذا الجانب لأنها هي التي سلكت منهج القرآن والسنة دون تأويل أو تحريف أو تعطيل لذلك كان منهجها صحيحا لا يخطيء أبدا .

٣ ـ التعريج على بعض كتب الغالين في الولاية لمعرفة ماهم عليه من بُعد عن منهج السلف الصالح ووقوع في الخطأ لاستنادهم على أقوال بشرية وشطحات نفسية وشخصية .

والله تعالى أسأل أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه تعالى، نافعا به، إنه نعم المولى ونعم النصير، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

تعريف الولى والولاية :

أ ـ في اللغة :

جاء في لسان العرب : الولي هو الناصر، وقيل المتولي لأمور العالَم والخلائق، القـائم بها، ومن أسمائه عز وجل «الوالي» وهو مالك الأشياء جميعها المتصرف فيها، قال ابن الأثير : وكأن الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل.

وفي مختار الصِّحاح : الوَلْى بسكون اللام : القرب والدنّو، الوِلاية بالكسر السلطان، الوَلاية بالفتح والكسرة النُّصرة.

وفي القاموس المحيط : الوَلْى : القرب والدنوّ، والولىّ : الاسم منه والمحب والصديق والنصير، والولاية : الإمارة والسلطان، والمولى المعتِق والمعتَق والصاحب والقريب والولى والرب والناصر والمحب.

وإذن فمعنى الولاية لغويا يدور حول : القرب والدنو والمناصرة.

ب ـ في الاصطلاح الشرعي :

وهذا نستقيه من حديث القرآن عن الولاية والأولياء، فلقد كان للقرآن الكريم حديث شامـل وواضح عن الولاية والأولياء حيث بينت الآيات حقيقة هذه الولاية وحددوها، ولمن تكون ومع من تكون، وحين نتتبع لفظ الولي والأولياء والـولاية في القـرآن الكـريم نجـد أن هذه الألفاظ تدور حول معنى القرب والصحبة، والمحبة والنصرة والرعاية والعناية، من هذا قوله عز وجل :

« ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ [(١)] »

وقوله تعالى : «وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ»[(٢)]، «وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ[(٣)]» فلقد قال المفسرون في معنى الولاية المذكورة في هذه الآيات إنها نصرة الله لعباده المؤمنين

---

(١) البقرة / ٢٥٧

(٢) آل عمران / ٦٨

(٣) الجاثية / ١٩

ومحبته لهم، ورعايته إياهم، يقول الطبرسي : «الولّي من الوَلْي وهو القرب من غير فصل، وهو الذي يكون أولى بالغير من غيره وأحق بتدبيره . . . ومنه المولى من فوق لأنه يلي أمر العبد بسد الخلة وما به إليه الحاجة، ومنه المولى من أسفل لأنه يلي أمر المال بالطاعة . . . والولي في الدين لأنه يلي أمره بالنصرة والمعونة كما توجبه الحكمة[1]».

ولقد تناول ابن تيمية تعريف الولى والولاية عن طريق المقابلة بين الولاية والعداوة فقال : «الولاية ضد العداوة، وأصل الولاية المحبة والقرب، وأصل العداوة البغض والبعد[2]».

أما تعريف الولي، فقد عرفه ابن تيمية بتعريفين : الأول منهما قد اشتقه من تعريف الولاية السابق، فإذا كانت الولاية هي المحبة والقرب، كان الولي هو القريب، يقال هذا يلي هذا أي يقرب منه[3]، أما التعريف الثاني فقد أورده بقوله : «وقد قيل إن الولى سمى وليًّا من موالاته للطاعات أي متابعته لها، والأول أصح، والولي القريب يقال هذا يلي هذا أي يقرب منه[4]».

وابن تيمية في هذا يفضل التعريف الأول القائم على المحبة والقرب، على التعريف الثاني القائم على معنى موالاة الطاعات ومتابعتها ، والذي أراه أنه وإن كان التعريف الأول هو الأصح في نظر ابن تيمية، وهو الذي يتوافق مع مفهوم اللغة، إلا أن لفظ الولي ـ وبخاصة في جانب ولاية المؤمن لله ـ يشمل كلا من المعنيين : المحبة والقرب، وموالاة الطاعات ومتابعتها، إذ أنهما أمران متلازمان ـ أو هذا مايجب أن يكون ـ فالولي لكي يكون قريبا من الله محبوبا منه لابد له من موالاة الطاعات

(١) الطبرسي (أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي) مجمع البيان في تفسير القرآن (دار الفكر، ودار الكتاب اللبناني، بيروت : ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م) جـ٢، ص ٣٠٧.

(٢) ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني) مجموعة فتاوي شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب؛ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، الطبعة الأولى سنة (١٣٨١هـ) جـ ١١، ص ١٦٠/١٦١.

(٣) المرجع السابق ص ١٦١

(٤) ابن تيمية، الفرقان بين اولياء الرحمن وأولياء الشيطان (إدارة ترجمان السنة، مطبعة لاهور سنة ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م) ص٧.

ومتابعتها، وكلما ازداد متابعة للطاعات كلما ازداد حبا من الله تعالى، وكان أكثر قربا من ربه بهذه الطاعات، وكذلك العكس، فمن كان محبا لله تعالى بحق فان هذا يدفعه لملازمة الطاعات ومتابعتها، يقول عز وجل في الحديث القدسي : «وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلَّى مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه[1]».

وقد سلك الشوكاني مسلك ابن تيمية في تعريف الولي والولاية ، حيث قابل بين الولاية والعداوة ـ كما فعل ابن تيمية ـ ثم خرج من هذا إلى أن الأولياء «هم خُلَّص عباده (أي عباد الله تعالى) القائمون بطاعاته المخلصون له[2]».

وهذا المعنى الذي دارت حوله كلمة الولي والولاية، قد تحقق وجوده بظهور الإسلام، فالإسلام هو الذي وصف المجاهدين في سبيل الله، والمناصرين لدينه بـ «أولياء الله» وأن الله وليُّهم يحبهم ويحبونه، وهذا كما جاء في قوله تعالى : « إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ[3]» وقوله عز وجل : « إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ »[4]. وفي هذا المعنى يقول الدكتور أبو العلا عفيفي :

«ومن أوائل هذه الصفات (أي صفات الولي) وأقدمها أن الولي شخص يؤيده الله وينصره، وقد ظهر هذا المعنى في الاسلام قبل ظهور التصوف وأولياء الصوفية، أي ظهر منذ ابتدأت الدعوة إلى الاسلام، وكان معنى الولاية : نُصرة الله للعبد لنصرته لدين الله، فالذين جاهدوا في الله كانوا أولياءه، والذين اضطهدتهم قريش وآذتهم من أجل إسلامهم، كل هؤلاء كانوا أولياء الله حسب النصوص القرآنية الواردة فيهم[5]».

---

(١) البخاري (مصطفى الحلبي ـ ١٣٤٥هـ) جـ ٨، ص ١٣١ باب التواضع.

(٢) الشوكاني (محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني) قطر الولي على حديث الولي (تحقيق ابراهيم هلال/ تحت اسم : ولاية الله والطريق إليها ، دار الكتب الحديثة) ص ٢٢٤.

(٣) الأنفال / ٧٢

(٤) المائدة : ٥٥/٥٦

(٥) د. أبو العلا عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الاسلام، (الطبعة الاولى سنة ١٩٦٣) ص ٢٩٦.

ومع أن هذا هو المعنى الذي يفهم من القرآن دون محاورة أو مداورة إلا أن البعض قد تلاعب بلفظ الولي والأولياء، فأخضعه لما يحب ويرضى من أجل مناصرة مذهبه، وإسناد هذا المذهب ـ منهجا ودليلا ـ إلى كتاب الله وسنه رسوله، فالذين «تشبعوا أو تصوفوا خصصوا هذا المعنى فأدخلوا فيه عناصر دخيلة أو مبتدَعة لاصلة لها بالإنسان المثالي في القرآن الكريم كما تفيده كلمة الولي فوصفوا بها أشخاصا معينين، إما من آل البيت ـ رضى الله عنهم ـ وإما من شيعة أهل البيت ، وإما من المتصوفة، وأصبحت كلمة «ولى» ـ في الإطلاق العام أو ما فوق الشعبي وفوق التخصيص السلفي ـ تطلق على رجل التصوف أو الشريف المنتسب الى آل البيت الذي يدعي ذلك ليتكسب من وراء هذا الادعاء[1]».

والقرآن حين تحدث عن الولاية بيَّن أنها قد تكون ولاية خير وفي الخير، وقد تكون ولاية شر وفي الشر، والأولى هي التي أطلق عليها ابن تيمية : «أولياء الرحمن» والثانية هي التي أطلق عليها : «أولياء الشيطان».

وكل من الولايتين ينقسم إلى عدة أنواع، ذلك أن ولاية الخير والأخيار قد تكون بين الله والمؤمنين، وقد تكون بين الملائكة والمؤمنين وقد تكون بين المؤمن وأخيه المؤمن.

أما ولاية الشر والأشرار، فهذه قد تكون بين المؤمن[2] وغير المؤمن، وقد تكون بين المؤمن والشيطان، وقد تكون بين كافر وكافر، أو كافر ومنافق ، وقد تكون بين الكافر والشيطان، فهي ولاية بين شيطان الإنس وشيطان الجن.

والذي يجمع هذا النوع أو ذاك في ولاية من هذه الولايات إنما هو عمل أصحابها، فالعمل الصالح يجمع بين المؤمنين مع بعضهم البعض في ولاية الخير، والعمل الطالح يجمع الكافرين والعصاة في ولاية الشر. أولئك حزب الرحمن ، وهؤلاء حزب الشيطان، جاء في تفسير ابن كثير قوله :

«قال سعيد عن قتادة في تفسيرها (أي قوله تعالى : «وكذلك نولى بعض

(١) إبراهيم هلال، ولاية الله والطريق إليها (مقدمته على كتاب الشوكاني : قطر الولي على حديث الولي) ص ٢٢٤ .

(٢) إنما أدخلت المؤمن تحت ولاية الشر، ووصفته بهذا الوصف ، باعتبار مافيه من موالاة لأهل الكفر والنفاق، وهذا كقول العلماء من أهل السنة عن أحد العصاة «مؤمن عاص».

الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون) إنما يولي الله الناس بأعمالهم «فالمؤمن ولى المؤمن أين كان وحيث كان، والكافر ولي الكافر أينما كان وحيثما كان[1]».

ولكل نوع من هذه الأنواع حُكْمه الذي حكم به المولى عز وجل، وبينه للناس في كتابه الحكيم حتى يكونوا على بصيرة ونور، وحتى يسيروا على صراط مستقيم. «صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ»[2].

وسأقتصر في هذا البحث على ولاية الخير والأخيار (أولياء الرحمن) لأن هذا هو الذي اختلفت فيه الآراء بين المتصوفين والسلف الصالح، وهو الذي حدث فيه الانحراف والخروج عن منهج القرآن والسنة، أما ولاية الشر، أو أولياء الشيطان وحزبه، فالكل ـ السلف والمتصوفة ـ مجمع على أنها ولاية فاسدة، وأهلها من حزب الشيطان، وحزب الشيطان هم الخاسرون.

---

(١) ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن كثير) تفسير القرآن العظيم (دار المعرفة)، (بيروت، سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣) جـ ٢ ص ١٧٦.

(٢) سورة الشورى / ٥٣

أنـواع ولايــة الخــير

ولاية الخير هي تلك الولاية القائمة على القرب والمحبة والمناصرة ولكن في سبيل الخير، فهي قرب في الخير، وهي مناصرة من أجل الخير، وهي حماية ورعاية بهدف تحقيق الخير، وهي محبة ولكن من أجل أهل الخير، وهذه الولاية أنواع متعددة هي :

ولاية الله للمؤمنين :

ولاية الله للمؤمنين جاءت فيها آيات كثيرة في كتاب الله الحكيم منها قوله تعالى : « إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ[1] » وقوله عز وجل : وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ[2] أي أنه سبحانه وتعالى هو وحده الذي يتولى أمر المؤمنين، وهو الذي ينصرهم ويرعاهم حتى يفوزوا بخيْرى الدنيا والآخرة كما قال سبحانه : « ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ[3] » فالذين آمنوا لا ولى لهم إلا الله، ولايصح ولا يجوز أن يكون لهم غير الله لأنه تعالى هو الذي تولى أمرهم ووفقهم وهداهم إلى الفلاح والنجاح، وفي هذا إخراج لهم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الإيمان وهداية الإسلام.

جاء في غرائب القرآن بعد قوله تعالى «الله ولى الذين آمنوا» : أي متولِّى أمورِهم وكـافـلُ مصالحهم، فعيل بمعنى فاعل، والتركيب يدل على القرب، فالمحب ولي يقرب منك بالمحبة والنُّصرة[4] ».

والطبري يقول تفسيراً لهذه الآية وموضحا لمعنى ولاية الله للمؤمنين : «الله ولي الذين آمنوا» أي نصيرهم يتولاهم بعونه وتوفيقه يخرجهم من الظلمات إلى النور[5] ».

---

(١) آل عمران / ٦٨

(٢) الجاثية / ١٩

(٣) البقرة / ٢٥٧

(٤) النيسابوري، (الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري) غرائب القرآن ورغائب الفرقان (ط ١ سنة ١٣٢٣هـ بهامش تفسير الطبري) جـ٢ ص ٢٢ .

(٥) الطبري (أبو جعفر بن جرير الطبري) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (ط٢) جـ٣ ص ٢١ .

وقد خَرَج الترمذي عن هذه المعاني التي قال بها كثير من المفسرين، ففسر الآية بتفسير يتفق وغرائب التفاسير التي يقول بها المتصوفة، فقال : «فالله ولى إخراجهم من ظلمات النفس إلى نور القُرْبة، ثم من نور القُرْبة إلى نوره[1]».

وقد أفاض الطبرسي في بيان معنى القربة فوضحها أحسن توضيح فقال :

«ولاية الله للمؤمنين تكون على ثلاثة أوجه : أحدها : أنه يتولاهم بالمعونة على إقامة الحجة والبرهان لهم في هدايتهم . . . وثانيها : أنه وليهم في نصرهم على عدوهم وإظهار دينهم على دين مخالفيهم، وثالثها : أنه وليهم يتولاهم بالمثوبة على الطاعة والمجازاة على الأعمال الصالحة[2]».

وهذا الوجه الثالث يعني أن ولاية الله للمؤمنين لا تقتصر على أمور الدنيا وإنما تمتد أيضا إلى أمور الآخرة كما قال سبحانه : «لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ[3]» يقول صاحب صفوة التفاسير : «وهو وليهم بما كانوا يعملون «أي هو تعالى حافظهم وناصرهم ومؤيدهم جزاء لأعمالهم الصالحة[4]».

أما صاحب المنار فيرى أن الله تعالى ولى العباد كلهم وهذه ولاية عامة ومطلقة، إذ هو وحده الذي يتولى أمور العباد كلهم، وذلك حيث خلق لهم المنافع والأعضاء والقوى التي بها يستطيعون تحصيل المنافع في الدنيا، أما ولايته للمؤمنين خاصة فهي عبارة عن عنايته بهم وإلهامه وتوفيقه إياهم لما فيه الخير والصلاح الروحاني والجسماني بما اختاروا لأنفسهم من الإيمان به وبما جاءت به رسله[5]».

وهـذه الولاية أعلى درجات الولاية وأفضلها وأجلها، لأنها ولاية بين الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء، ولا يحتاج الى أي شيء، والعبد المخلوق الذي يحتاج إلى من يتولى أموره ويرعاه ويكون مجيرا له في كل وقت وحين، قال عز وجل :

---

(١) الترمذي (أبو عبدالله محمد بن على بن الحسن الحكيم الترمذي) كتاب ختم الأولياء = . . .
تحقيق : عثمان اسماعيل يحيى، المطبعة الكاثوليكية، بيروت عام (١٩٦٥) ص ٣٣٣

(٢) الطبرسي ، مجمع البيان جـ ٢ ص ٣٠٧

(٣) الأنعام / ١٢٧

(٤) الشيخ محمد على الصابوني ، صفوة التفاسير (دار القرآن، ببيروت ، ط١ سنة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م) جـ ٣ ص ٩٦

(٥) محمد رشيد رضا : تفسير القرآن الحكيم الشهير بالمنار (ط ٢ سنة ١٣٦٦) جـ ٢ ص ٤٤

« وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ[1] » ولأن المؤمنين مصدقون بهذه الحقيقة فإنهم دائما وأبدا يطلبون من ربهم العون والرعاية متضرعين إلى مولاهم قائلين : « أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ[2] » « إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ[3] » « وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا[4] » .

ولاية المؤمنين لله :

ولاية المؤمنين لله تعالى يقصد بها أنهم ـ أي المؤمنين ـ قريبون من الله تعالى بطاعتهم له عز وجل ، ومحافظتهم على دينه ، والدفاع عنه ، وهذا كما جاء في قوله تعالى : « أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ[5] » فهم آمنوا وصدقوا بأركان الإيمان ، وهم الذين يتقون ربهم فيعملون الصالحات ويتنزهون عن السيئات ، وبهذا يصيرون قريبين من الله ، والله قريب منهم يحبهم ويحبونه .

ولاشك في وجود تلازم بين ولاية الله للمؤمنين ، وولاية المؤمنين لله تعالى لكن لايلزم على هذا أن يكون بينهما تلازم أو اتفاق في صدق المعنى وتحققه في كل من الولايتين لأنه إذا كان أساس ولاية الخير هو النُّصرة والعناية والرعاية ، فإن هذا المعنى صحيح تحققه وصدقه في جانب ولاية الله للمؤمنين لأنه هو الذي يرعاهم وينصرهم ، ويهديهم الى الطريق المستقيم ، فليس لهم في الأرض من ولي ولا نصير إلا الله العلي القدير ، أما ولاية المؤمنين لله تعالى فهذه لايجوز أن يفهم منها هذا المعنى الذي ذكرناه في جانب ولاية الله للمؤمنين إذ هو تعالى ليس بحاجة الى نصرة أو رعاية ، وإنما يقصد بها أن هذا المؤمن يتولى نصرة دين الله بالمحافظة عليه والتمسك به والدفاع عنه أمام الطاعنين الحاقدين ، وهذا كما قال الشوكاني :

---

(١) البقرة / ١٠٧
(٢) الأعراف ١٥٥
(٣) الأعراف / ١٩٦
(٤) النساء / ٤٥
(٥) يونس : ٦٣/٦٢

«الولي في اللغة القريب، والمراد بأولياء الله خلص المؤمنين، كأنهم قربوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته، وقد فسر سبحانه هؤلاء الأولياء بقوله : «الذين آمنوا وكانوا يتقون» أي يؤمنون بما يجب الإيمان به، ويتقون مايجب عليهم من معاصي الله سبحانه[1].

ويستند صاحب المنار إلى قول الله تعالى : «ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون» في تحديد معنى ولاية المؤمنين لله تعالى فيقول : «وأما ولايتهم له تعالى فقد عبر عنها بالإيمان والتقوى، فهم بالإيمان يتولونه أي يعتقدون أنه هو المتولي لأمورهم وحده . . . ثم إنهم مع هذا الإيمان يتقونه بترك المعاصي والإثم والظلم والبغي في الأرض[2]».

أما الترمذي فله رأي آخر في معنى هذه الولاية إذ يقول في تفسيرها :

«ولىَ الله أمرهم وولى نصرهم على نفوسهم فتولَّوْا أيام الدنيا نصرة حقوقه، ثم وَلِىَ أخْذهم إليه وضمَّهم إلى المحل بين يديه[3]» وهذا الذي يقوله الترمذي بعيد عن الحق الذي عليه السلف الصالح، مخالف لما قاله المفسرون في هذا المجال وبخاصة قوله : «وضمهم إلى المحل بين يديه» فإن هذا يوحي بالتشبيه والتجسيم والحلول، والسلف الصالح يبرأ من مثل هذه الأقوال والأفكار، والترمذي بقوله «ثم ولى أخذهم إليه وضمهم إلى المحل بين يديه» إنما يجسم الفكرة الأساسية للتصوف ألا وهي : الاتحاد بين الصوفي وبين الله ! «ذلك أن التصوف الاسلامي منذ رابعة العدوية في الثلث الثاني من القرن الثاني للهجرة قد قام على أساس منهج استبطان كامل للنفس في علاقتها بالله، وعلى أساس محاولة اتحاد بالمطلق، أو على الأقل إيجاد صلة خلة به وعشق له تسمح ، إذا ما تعالت بالاتحاد مع الذات[4]».

وإذا كان الولي هو القريب من الله تعالى ـ كما يرى السلف وعلماء التفسير ـ فإنه لايكون هكذا إلا إذا آمن بأركان الإيمان كلها، وعمل بأركان الإسلام جميعها،

(١) الشوكاني (محمد بن على بن محمد بن عبدالله الشوكاني) فتح القدير (ط ١ سنة ١٣٤٩هـ) جـ٢ ص ٤٣٦ .
(٢) رشيد رضا ، تفسير القرآن الحكيم جـ٢ ص ٤٤
(٣) الترمذي ، ختم الأولياء ص ٣٣٣
(٤) د/ عبد الرحمن بدوي، تاريخ التصوف الاسلامي (ط١ سنة ١٩٧٥م) ص١٩ .

وتمسك بسنة المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قولا وعملا، وابتعد عما يغضب الله ورسوله، يقول ابن القيم :

«فأولياء الرحمن هم المخلصون لربهم المحكّمون لرسوله في الحَرَم والحِلّ، الذين يخالفون غيره لسنته ولا يخالفون سنته لغيرها، فلا يبتدعون ولا يَدْعون إلى بدعة، ولا يتحيزون إلى فئة غير الله ورسوله وأصحابه، ولا يتخذون دينهم لهوا ولعبا، ولا يستحبون سماع الشيطان على سماع القرآن . . . أولياء الرحمن هم المتلبسون بما يحبه وليهم، الداعون إليه، المحاربون لمن خرج عنه[1]».

ولهذه الولاية درجة عظيمة عند الله ورتبة عالية عند المولى عز وجل لأنها اعتراف بعبودية العبد لخالقه ورازقه، وشكر للمنعم على نعمه وعطاياه، واعلاء لدين الله ومناصرة له حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

ولاية الملائكة للمؤمنين :

هذا هو النوع الثالث من ولاية الخير والأخيار، وفيه تتحقق المناصرة والمعاونة ـ بطريق مباشر او غير مباشر[2] ـ من الملائكة للمؤمنين الذين استقاموا في حياتهم وساروا على هدى شريعة الله الطيبة الطاهرة، وهذا كما قال سبحانه : «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نُزُلاً من غفور رحيم[3]».

فالملائكة في هذا النص القرآني تتولى أمور المؤمنين فتنصرهم وترعاهم وتعينهم وتحافظ عليهم سواء أكان هذا في الدنيا أم في الآخرة، إلا أن المعاونة والمناصرة في

---

(١) ابن القيم «شمس الدين أبي عبدالله بن قيم الجوزية» الروح (ط١) ص ٣٥٨

(٢) إنما قلت هذا لأن بعض المفسرين يرى أن قول الله «نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة» هو من قول الله وليس من قول الملائكة ، وعلى هذا الرأي تكون هناك مناصرة من الملائكة غير مباشرة حيث بلّغت هذه الملائكة قولَ الله للمؤمنين بعدم الخوف والحزن ، كما بلغتهم بشرى الله لهم في الآخرة ألا وهو دخولهم الجنة ، وهذه مناصرة للمؤمنين .

(٣) فصلت : ٣٠ ـ ٣٢

الآخـرة تختلف عنهـا في الـدنيا، ففي الدنيا تكون الولاية في إلهام المؤمنين الحق، وإرشادهم الى الصواب وما فيه خيرهم وصلاحهم، أما في الآخرة فتكون في منحهم الشفاعة ولقائهم بالتكريم والبشرى بالنعيم المقيم، كما تكون في مصاحبة الملائكة للمؤمنين حتى يدخلوا الجنة بسلام آمنين.

جاء في تفسير القرطبي بعد قوله تعالى : «إن الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا . . الآية، ما نصه : «قال وكيع وابن زيد : البشرى في ثلاثة مواطن : عند الموت، وفي القبر، وعند البعث، «نحن أولياؤكم» أي تقول لهم الملائكة الذين تتنزل عليهم بالبشارة «نحن أولياؤكم» قال مجاهد أي نحن قرناؤكم الذين كنا معكم في الدنيا، فإذا كان يوم القيامـة قالوا لا نفارقكم حتى ندخلكم الجنة، وقال السدى : أي نحن الحفَظَة لأعمالكم في الدنيا، وأولياؤكم في الآخرة[1].

ونضيف الى هذا ماجاء في تفسير الألوسي توضيحا لولاية الملائكة للمؤمنين : «تتنزل عليهم الملائكة» . . . يمدونهم فيما يَعِنُّ ويطرأ لهم من الأمور الدينية والدنيوية بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام . . . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا ـ إلى آخره ـ من بشاراتهم في الدنيا أي أعوانكم في أموركم نلهمكم الحق ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم . . . وفي الآخرة نمدكم بالشفاعة ونتلقاكم بالكرامة[2]».

ويقـول ابن كثير تفسيرا لمعنى الآية وتوضيحا لهذه الولاية : «تقول الملائكة للمؤمنـين عنـد الاحتضار نحن كنا أولياءكم أي قرناءكم في الحياة الدنيا نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصُّور، ونؤمِّنكُم يوم البعث والنشور، ونجاوزكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم[3]».

وإذن فإن ولاية الملائكة للمؤمنين تكون متحققة في الحياة الدنيا، وفي حياة

---

(١) القرطبي (أبو عبيد الله محمد بن أحمد الأنصاري) الجامع لأحكام القرآن (ط ٢) جـ١٥ ص ٣٥٩.

(٢) الألوسي (أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (دار الفكر ـ بيروت ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨) جـ ٢٤ ص ١٢١.

(٣) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، حـ٤ ، ص ٩٩

البرزخ ، وفي الحياة الآخرة، وهذه نعمة عظيمة ومنحة جليلة من المولى عز وجل اختص بها عباده المؤمنين المتقين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا على طريق الوحدانية الخالصة لله تعالى والعمل الصالح ابتغاء مرضاته عز وجل.

ولاية المؤمنين لبعضهم البعض :

هذه هي الولاية الأخيرة من ولاية الخير والأخيار (أولياء الرحمن) وفي هذه الولاية يكون التناصر والتعاون قائما بين المؤمنين، فالقوى يناصر الضعيف ، وصاحب المال يعاون الفقير، وصاحب العلم النافع ينفع المؤمنين بعلمه .

والمؤمنون في هذه الولاية يتماسكون ويتعاونون في سبيل إقامة شعائر دين الله ، فلا يأمرون إلا بالمعروف، ولا يفعلون إلا الأعمال الصالحة، فيقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، وينهون عن المنكر، ويطيعون لله ورسوله.

هذه هي أسس هذه الولاية كما جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ففي القرآن جاء قوله تعالى : « **وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ** »[1] وفي الحديث الصحيح : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا[2]» وقوله عليه السلام «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى[3]».

هذا مايجب أن يكون كي تتحقق ولاية المؤمنين لبعضهم البعض، وتأكيدا لهذا المعنى فإن القرآن الكريم يبرز لنا صورة واقعية قد حدثت بالفعل في عصور الاسلام الأولى، بل في فجر الدعوة الإسلامية فكانت منارة يستنير بها المؤمنون لأنها قد اشتملت على أهم وأعظم أسس ولاية المؤمن لأخيه المؤمن، ذلك ماجاء في قوله تعالى

---

(١) التوبة / ٧١

(٢) مسلم، م ٨ ج ١٦، من كتاب البر

(٣) مسلم، م ٨ ج ١٦، كتاب البر

: إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ[1]».

نحن في هذه الآية أمام صورة واقعية من ولاية المؤمنين الأوائل قد حدثت بالفعل في فجر الدعوة الإسلامية، وكان لهذه الولاية أثر كبير ومهم في بناء الدولة الإسلامية.

فالمهاجرون تركوا ديارهم وخرجوا في سبيل الله مجاهدين بأموالهم وأنفسهم[2] فتلقاهم الأنصار بالحب والنُّصرة وأعطوهم من مالهم، بل وطلقوا بعض نسائهم رضاً وقناعة وذلك ليتزوجهن المهاجرون، وهذه أعلى صور الولاية التي تكون بين المؤمن وأخيه المؤمن.

يقول ابن كثير تفسيراً لهذه الآية : «ذكر تعالى أصناف المؤمنين وقسمهم إلى مهاجرين خرجوا من ديارهم وأموالهم وجاءوا لنصر الله ورسوله وإقامة دينه، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك، وإلى أنصار وهم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك آووْا إخوانهم المهاجرين في منازلهم وواسوهم في أموالهم ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم فهؤلاء (بعضهم أولياء بعض) أي كل منهم أحق بالآخر من كل أحد، ولهذا آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار كل إثنين أخوان فكانوا يتوارثون إرثا مقدما على القرابة حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث . . . قال الإمام أحمد، حدثنا وكيع عن شريك عن عاصم عن أبي وائل عن جرير هو ابن عبد الله البجلي رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة[2]».

وقد عرَّف تفسير المنار هذه الولاية وحددها بقوله : «وأما ولاية المؤمنين بعضهم لبعض فهو عبارة عن تعاونهم وتناصرهم في الأمور المشتركة مع استقامتهم على الاعمال الصالحة الخاصة لأن الفساد الشخصي لايتفق مع القيام بالمصالح العامة، وذلك

---

(١) الأنفال / ٧٢

(٢) ابن كثير، تفسير القران العظيم جـ٢ ، ص ٣٢٨/٣٢٩

ظاهر من قوله تعالى في الآية (٩ : ٧١)[١] بعد ذكره هذه الولاية «يأمرون بالمعروف وينهوْن عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة . . الخ ، ومن وصفهم بالمجاهدة في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم كما في الآية الأخرى (٨ : ٧٢)[٢] فكل من كان كذلك فقد وجبت ولايته على جميع المؤمنين ، ولا معنى لكون المؤمن وليا للمؤمن إلا هذا ، أي إنه عون له ونصير في الحق[٣] .

وعلى هذا فإنه لكي تتحقق هذه الولاية في عصرنا الحاضر لابد من اتصاف أصحابها بالإيمان والهجرة[٤] في سبيل الله ، والجهاد بالمال والنفس ـ وبخاصة ما نحن فيه الآن من ضياع أرض الإسلام في كثير من المناطق ـ والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله في اَلمكْره والمنشط ، وفي السراء والضراء لأنه تعالى هو الذي بيده كل شيء وهو الذي يعطي ويمنع ، وهو الذي له ملك السموات والأرض وما فيهن .

واذا كان المؤمنون بعضهم أولياء بعض ، والرسول هو أول المؤمنين بلا منازع كانت أفضل درجات هذه الولاية تلك الولاية التي تكون بين المؤمنين ورسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه هو الذي يرشدهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم كما قال سبحانه : « إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ .[٥]

---

(١) وهي قوله تعالى «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض «الآية

(٢) وهي قوله تعالى «ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا باموالهم وانفسهم» الاية

(٣) رشيد رضا ، تفسير المنار جـ ٣ ، ص ٤٤

(٤) هذا على معنى قول الرسول «المهاجر من هجر مانهى الله عنه» أو على معنى المهاجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان إذا كانوا مستضعفين في دار الكفر لأن من لم يهاجر يقال له يوم القيامة «ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها» (النساء / ٩٧) .

(٥) المائدة / ٥٥

شروط الولاية وصفات الولي :

أولياء الرحمن أو ولاية الخير والأخيار، ليست دعوى يدعيها أي إنسان، وليست شعارات دينية يرفعها هذا أو ذاك دون معرفة وإيمان بالله ورسوله، وإنما هي درجة ومرتبة دينية لايصل إليها إلا من عمل بمبادئها واتصف بصفاتها، وسار على هدى شروطها، لأنها إن تحققت شروطها في إنسان ما، كان هذا الإنسان من أولياء الله الصالحين وكان الله والملائكة والمؤمنون أولياءه بحق، وكان كامل الولاية أما إن تحقق بعض الشروط دون البعض الآخر كان هذا الإنسان وليا لكنه ليس بالدرجة الكاملة، أما هذه الشروط التي هي وسيلة لتحقق الولاية الكاملة فهى[1] :

١ ـ الايمان والتقوى :

هذا هو أول الشروط وأهمها لتحقق ولاية الأخيار بكافة أنواعها، فبدون هذا الشرط لاتتحقق الولاية، ولاتظهر على يد مدعي الولاية خوارق العادات المبهرة دون إيمان وتصديق بأركان الإيمان والإسلام، ودون عمل صالح، فهذا الذي ظهر على يديه من خوارق العادات ليس دليلا على ولايته، وإنما هو من باب الاستدراج، فلقد أجمع السلف الصالح على أن إنسانا ما لايكون وليا «إلا بأن يكون محقا في ديانته، وديانته هي الاقرار بالقلب واللسان والانقياد بالجوارح والأركان لما جاء به نبيه المتبوع، ورسوله الذي عليه المعوّل؛ وإلى ما جاء به من الرجوع، والطاعة لأوامره، والانتهاء عن زواجره في السر والإعلان، حتى لو ادعى هذا الذي ظهرت على يده الكرامة الاستقلال بنفسه وعدم المتابعة لم يكن وليا، ولم يظهر الخارق على يده، ولو فرض ظهوره فهو حينئذ من قبيل الاستدراج[2]».

---

(١) ابن تيمية ، الفتاوي الكبرى جـ١١ ص ١٦٩ ـ ١٧٣

(٢) السفاريني (محمد بن أحمد السفاريني) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المُضِيّة في عقيدة الفرقة المَرْضيّة (المكتب الاسلامي ، بيروت لبنان) جـ٢، ص ٣٩٦.

وهذا حق، فمن «أظهر الولاية وهو لا يؤدي الفرائض (ولا السنن)، ولا يجتنب المحارم، بل قد يأتي بما يناقض ذلك لم يكن لأحد أن يقول هذا ولي الله[1]».

وهؤلاء الذين يسيحون في الأرض بدعوى الولاية، وهم تاركون لفرائض الله، مستحلون لمحارمه، ينام الرجال مع النساء، والنساء مع الرجال، دون مراعاة لمحارم الله، مدعين الأخوّة، هؤلاء ليسوا بأولياء لله، وإنما هم أعداء لله، لأن الولي الحق هو الذي تحقّق فيه عنصر الإيمان والتقوى، وصفة الولي أن يكون مؤمنا تقيا كما قال سبحانه:

«أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ»[2]

يقول ابن كثير تفسيرا لهذه الآية: «يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما فسرهم ربهم، فكل من كان تقيا كان لله وليا... قال عبدالله بن مسعود وابن عباس وغير واحد من السلف: أولياء الله الذين اذا رُؤُوا ذُكِرَ الله... عن ابن عباس قال: قال رجل يا رسول الله مَنْ أولياء الله؟ قال: «الذين إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله[3]»، ويوضح صاحب الكشاف هذه الولاية وهذه الرؤية الواردة في هذا الحديث فيقول: «عن سعيد بن جبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل: من أولياء الله؟ قال هم الذين يُذْكَرُ الله برؤيتهم «يعني السمت والهيئة، وعن ابن عباس رضى الله عنهما: الإخبات والسكينة[4]»، والسمْت والهيئة، والاخبات والسكينة، من لوازم تحقيق الإيمان الصحيح والتقوى الصادقة في الانسان.

وهذا الإيمان ـ وهذه التقوى ـ الذي لابد منهما في تحقيق الولاية الشرعية في إنسان ما، هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وكافة أركان الإيمان والاسلام الواردة في القرآن والسنة، متوجا هذا كله بالقيام بالأعمال الصالحة والانتهاء

---

(١) ابن تيمية، الفتاوي الكبرى، جـ ١١، ص ١٩٣.

(٢) يونس/ ٦٢-٦٤.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم جـ٢، ص ٤٢٢

(٤) الزمخشري (أبو القاسم جارالله محمود بن عمر الزمخشري) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (دار المعرفة، بيروت) جـ٢، ص ٢٤٣.

عنا نهى عنه الله ورسوله، وقد جمع القرآن الكريم هذا الإيمان وهذه التقوى في قول الله تعالى : «* لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ *»[1] ، «والتقوى هي فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه[2]».

وعلى قمة الإيمان بالكتب، الإيمان بالقرآن الكريم معجزة الله الخالدة ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وعلى قمة الإيمان بالنبيين، الايمان بأن محمداً بن عبدالله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاتم النبيين فلا نبيَّ ولا رسول بعده «مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ[3]» وأنه رسول الله إلى جميع الإنس والجنّ كما قال سبحانه حكاية عن الجن : «ياقومَنا أجيبوا داعي الله[4]» وسورة الجن أكبر دليل على رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى الجن، وأما بعثته عليه السلام إلى جميع الإنس فذلك يدل عليه قوله تعالى «قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا[5]» وقوله سبحانه : «وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا[6]»

والسلف الصالح يرى أن الولاية نظير الإيمان فكما أن الإيمان يزيد وينقص، ويكون كاملا وناقصا، كذلك الولاية، تزيد وتنقص وتكون كاملة وناقصة، فالكاملة تكون للمؤمنين المتقين الذين جاء ذكرهم في قول الله تعالى : «ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون» وهي كما بينها شارح

---

(١) البقرة / ١٧٧

(٢) ابن تيمية ، مجموعة الرسائل الكبرى (دار احياء التراث العربي) م ١، الوصية الكبرى، ص ٣١٠

(٣) الأحزاب / ٤٠

(٤) الأحقاف / ٣١

(٥) الأعراف / ١٥٨

(٦) سبأ / ٢٨

الطحاوية بقوله: «موافقة الولي الحميد في محابِّه ومساخطه، ليست بكثرة صوم ولا صلاة ولاتملق ولا رياضة[1]» والسفاريني يرى أن ولاية الخير والأخيار موهبة من الله، فهي غير مكتسبة بعمل أو علم[2]، ولكن هذه الموهبة لايحصلها من كان غير مؤمن ولا تقي، فمفتاحها الايمان والتقوى، والله لايهب محبته وقربه لمن كان معاديا له، كافرا به.

أمـا الولاية الناقصة فهذه بأن: «يجتمع في المؤمن ولاية من وجه وعداوة من وجه، كما قد يكون فيه كفر وإيمان وشِرْك وتوحيد، وتقوى وفجور، ونفاق وإيمان . . . قال صلى الله عليه وسلم «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خَصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا حدّث كذب، وإذا عاهد غَدَر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجَر[3]».

وقد روى ابن تيمية في كتابه «الاستقامة» أقوالا لبعض المتصوفة بنفون فيها الولاية عن أهل الكلام، ومن توسط منهم في الحكم قال بأن ولاية أهل الكلام ولاية ناقصة، وليست هي الولاية الكاملة، ولاية أولياء الله الراسخين عقيدة وعلما، من ذلك مثلا قول أحدهم:

«وقد طُفت الأرض واجتمعت بكذا وكذا وَلِيٍّ لله فلم أجد أحدا منهم على هذا الاعتقاد (يقصد اعتقاد الأشعرية المتأخرين) وإنما وجدته على اعتقاد هؤلاء، وأشار

---

(١) القاضي على بن على بن محمد بن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية (تحقيق شعيب الأرناؤوط، نشر مكتبة دار البيان) ص ٣٤١.

(٢) السفاريني، لوامع الأنوار البهية ج٢، ص ٣٩٦.

(٣) القاضي على بن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٤١، والحديث متفق عليه وقد رواه البخاري في باب الايمان وكذلك مسلم.

وننبه هنا الى أن ما ذكره شارح الطحاوية من أن المؤمن يكون فيه كفر وإيمان وشرك وتوحيد ونفاق وإيمان، يؤخذ على معنيين، أحدهما: الكفر الأكبر وهو ما يسمى بالكفر الاعتقادي أو كفر العقيدة، ولا يماري أحد في أنه لا يجتمع الإيمان مع كفر العقيدة، ولا يجتمع الايمان مع النفاق في العقيدة، أما الثاني فهو ما يسمى كفرا أصغر، أو كفر عمل، أو نفاق عمل، أو شرك عمل، وهذا هو الذي عناه ابن تيمية في كتبه، وشارح الطحاوية في النص الذي ذكرناه، والسلف الصالح، وهو ما جاء في قول الرسول «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» (البخاري باب الايمان)

وقوله عليه: «بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة» (مسلم في الإيمان) وقوله: «من حلف بغير الله فقد كفر» رواه الحاكم وهو صحيح، انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٩٤ - ٢٩٩.

إلى جيرانه أهل الحديث والسنة[1]» وقال أحدهم: «إذا بلغك عن أهل المكان الفلاني (قد سمّاه لمحدثه)، وإذا بلغك أن فيهم رجلا مؤمنا ـ أو رجلا صالحا ـ فصدِّق، واذا بلغك أن فيهم وليا لله فلا تصدق، فقلت: ولم ياسيدي ؟ قال لأنهم أشعرية[2].

وهذا الذي يقوله هؤلاء إن قصدوا به إخراج أهل الكلام من عموم الولاية فذلك بُعْد عن منهج السلف الصالح، لأنهم قالوا بأن أساس الولاية هو الإيمان والتقوى، ولاشك أن أهل الكلام كانوا مؤمنين متقين لله سبحانه وتعالى ـ إلا من ضل ـ أما إن قصدوا به إخراجهم من كمال الولاية فهذا صحيح وهو الذي ارتآه ابن تيمية حين قال: «ومن نظر في عقائد المشايخ المشهورين مثل الشيخ عبد القادر والشيخ عُدَي بن مسافر والشيخ أبي البيان الدمشقي وغيرهم وجد من ذلك (أي من هذا الذي قالوه بشأن علماء الكلام) كثيرا، ووجد أنه من ذهب إلى مذهب شيء من أهل الكلام ـ وإن كان متأولا ـ ففيه نقص وانحطاط عن درجة أولياء الله الكاملين، ووجد أنه من كان ناقصا في معرفة اعتقاد أهل السنة واتباعه ومحبته، وبغض ما يخالف ذلك وذمه بحيث يكون خاليا عن اعتقاد كمال السنة واعتقاد البدعة، تجده ناقصا عن درجة أولياء الله الراسخين في معرفة اعتقاد أهل السنة واتباع ذلك»[3].

ولما كانت الولاية نظير الإيمان في الكمال والنقص، والكمال على درجات، وكذلك النقص على درجات، كانت الولاية على درجات، والأولياء على درجات، إذ بحسب قوة إيمان العبد وضعفه، وبحسب رسوخه في تقواه أو تزلزله فيها تكون درجته في الولاية « فمن كان أكمل إيمانا وتقوى كان أكمل ولاية لله، فالناس متفاضلون في ولاية الله عز وجل بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى[4]».

ولما كان الإيمان والتقوى أمرين لابد منهما في سلوك طريق الولاية، كان كل من لايصح منه الإيمان، والتقوى كالأطفال والمجانين، ومن لم تبلغه الدعوة ليس بولي لله تعالى[5].

---

(١)، (٢)، (٣) ابن تيمية، الاستقامة (مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية، ط ١، سنة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م) جـ١، ص ٨٨/٨٩.

(٤) ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ص ٢٤

(٥) ابن تيمية، الفتاوي الكبرى جـ ١١، ص ١٩١.

٢ ـ الإكثار من النوافل.

بالايمان والتقوى تتحقق الولاية لكنها بدون النوافل تكون ولاية ناقصة، فالنوافل وسيلة للوصول الى الولاية الكاملة، وكلماأكثر المؤمن من النوافل كلما ازداد ولاية لله وللمؤمنين، وكان الله والملائكة أولياء له.

وإنما كانت النوافل وسيلة وطريقا إلى الولاية الكاملة لأنها تقرب المؤمن من ربه فيحبه ويهديه سواء السبيل، وكلما ازداد من النوافل كلما ازداد قربا من الله فيهبه الله الولاية الكاملة، ويسبغ الله عليه هذه الدرجة العالية، وهذا كما قال عليه السلام فيما يرويه عن رب العزة:

« . . . ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي عليها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه[1]»، ولقد أفاض وأجاد ابن القيم في تبيان هذه الدرجة من الولاية فقال:

«أخبر سبحانه . . . أن المحب لايزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوبا لله فإذا صار محبوبا لله أوجبت محبة الله له محبة أخرى منه لله فوق المحبة الأولى فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه، وملكت عليه روحه . . . ولا ريب أن هذا المحب إن سمع، سمع بمحبوبه، وإن أبصر أبصر به، وإن بطش بطش به، وإن مشى مشى به، فهو في قلبه ومعه، وأنيسه وصاحبه، فالباء هنا للمصاحبة، وهى مصاحبة لانظير لها، ولا تدرك بمجرد الإخبار عنها والعلم بها، فالمسألة حالية (أي أحوال يهبها الله) لا علمية مُحضة . . . وخص في الحديث السمع والبصر واليد والرجل بالذِّكْر فإن (لأن) هذه الآلاتِ آلاتُ الادراك، وآلات الفعل، والسمع والبصر يوردان على القلب الارادة والكراهة، ويجلبان إليه الحب والبغض، فيستعمل اليد والرجل، فإذا كان سمع العبد بالله. وبصره بالله . . . كان محفوظا في إدراكه،

---

(١) البخاري (مصطفى الحلبي ـ ١٣٤٥ هـ) ج٨، ص ١٣١ باب التواضع.

وكان محفوظا في حبه وبغضه، فحفظ في بطشه ومشيه . . . وتأمل كيف قال «فبي يسمع وبي يبصر» . . . (فـ) الباء هنا للمصاحبة، أي إنما يسمع ويبصر ويبطش وأنا صاحبه ومعه كقوله في الحديث الآخر «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه، وهذه هي المعية الخاصة في قوله تعالى : «لاتحزن إن الله معنا[1]» .

وهذا الذي يقوله ابن القيم حق وصدق، لأن الصلاة طهارة للبدن، وطهارة للروح، وكلما أكثر المؤمن من تطهير روحه كلّما سمت وارتقت وكانت بينها وبين العبادات ألفة ومحبة، وصداقة قوية، وبينها وبين الفواحش والسيئات بغض وكراهية، وهذا كما قال تعالى: «أتل ما أُوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون[2]» .

وجاء في القسطلاني[3] شرحا لهذا الحديث: «وفي حديث أنس: (ومن أحببته كنت له سمعا وبصرا ومؤيدا) وهو مجاز وكناية عن نصرة العبد وتأييده وإعانته ، حتى كأنه سبحانه ينزل نفسه منزلة الحواس التي يستعين بها . . . أو ان سمعه بمعنى مسموعه لأن المصدر قد جاء بمعنى المفعول، مثل فلان أملي بمعنى مأمولي، والمعنى: أنه لايسمع إلا ذكري ولا يلتذ إلا بتلاوة كلامي وقراءة كتابي، ولا يأنس إلا بمناجاتي، ولا ينظر إلا في عجائب ملكوتي، ولا يمد يده إلا فيما فيه رضاي، ورجله كذلك، قاله الفاكهاني» .

أما الشوكاني فقد انتقد جميع الشروح التي قيلت حول هذا الحديث وخرج برأي خاص به حيث قال: «الذي يظهر لي في معنى هذا الحديث القدسي أنه إمداد الرب سبحانه لهذه الأعضاء بنوره الذي تلوح به طرائق الهداية وتنقشع عنده سحب الغواية . . . وأي مانع يمنع من أن يمد الله سبحانه عبده من نوره فيصير صافيا من كدورات الحيوانية والإنسانية لاحقا بالعلم العلوي سامعا بنور الله، مبصرا بنور الله، باطشا

---

(١) ابن القيم (شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ط١ سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) ص ٢١٩ - ٢٢١ .

(٢) العنكبوت / ٤٥ .

(٣) القسطلاني (أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (دار صادر - بيروت - ط ٦، سنة ١٣٠٥) جـ٩، ص ٢٨٩ .

بنور الله، ماشيا بنور الله، وما في هذا من منع أو من أمر لايجوز على الرب سبحانه . . . فمعنى الحديث: كنت سمعه بنوري الذي أقذف فيه فيسمع سماعا لا كما يسمعه أمثاله من بني آدم، وكذلك بقية الجوارح[1]».

٣ ـ محبة ما يحبه الله ورسوله، وبغض ما يبغضه الله ورسوله :

بتحقق هذا الشرط يتأكد إخلاص العبد في إيمانه وتقواه، وكمال محبته لله ورسوله. وبغضه للشيطان وأعوانه، وحين يحب المؤمن ما يحبه الله ورسوله فإنه سيأمر غيره من الناس بهذا المعروف، وحين يبغض ما يبغضه الله ورسوله فإنه سينصح غيره من الناس وينهاهم عن هذا المنكر.

والولى المخلص في ولايته حين يعطي غيره يعطيه محبة في الله ورسوله، ومحبة في الإنفاق للإنفاق لا للرياء، ولا للمباهاة، لأن هذا من المنكرات التي يجب أن يبرأ منها الولي ويتنزه عنها وعن مخالطتها لقلبه وروحه.

وحين يمنع هذا الولى شيئا عن خيره فلا يصح أن يكون هذا اشتهاء أو عقابا أو من أجل رئاسة وملك، وإنما حين يكون هذا منه فليكن من أجل الله وفي الله «لأن أولياء الله هم الذين آمنوا به ووالوه فأحبوا ما يحب، وأبغضوا ما يبغض، ورضوا بما يرضى، وسخطوا بما يسخط وأمروا بما يأمر، ونهوا عما نهى، وأعطوا لمن يحب أن يعطي، ومنعوا من يحب أن يمنع، كما في الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله» وفي حديث آخر رواه أبو أبو داود وقال : «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله استكمل الايمان[2]».

---

(١) الشوكاني، قطر الولى على حديث الولى ص ٤١٥/٤١٦.

(٢) ابن تيمية، الفرقان ص ٦/٧.

٤ ـ اتباع القول بالعمل[١] :

من ادَّعى محبة الله ورسوله وولايتها لزمه أن يكون متّبعا لله في أوامره ونواهيه، متبعا للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في هدية وإرشاده، ولايكفي مجرد التصديق القلبي بمحبة الأوامر الإلهية، وإنما لابد مع هذا التصديق القلبي من تصديق عملي، بمعنى أن يكون العمل الصالح تصديقا لما يكنه المؤمن في قلبه من محبة الله تعالى، ومحبة رسوله، وهذا كما قال عز وجل: « قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ »[٢].

وبعـــد :

فهـذه هي الشروط التي أمكنني استنتـاجهـا من كتـابات ابن تيمية في هذا الموضوع، ونلاحظ على هذه الشروط والصفات :

أولا : أنها في متناول الناس جميعا، فالمؤمن التقى يستطيع الإكثار من النوافل، ومن يكـون على هذه الطريقة يستطيع تحقيق محبة الله ورسوله، ومن يحقق هذه المحبة في نفسه سهل عليه أن يتبع القول بالعمل الصالح والنافع له في الدنيا والآخرة.

وحيث إن الأعمال في متناول كل مؤمن، فإن هذا يعني أن الولاية تكون في كل عصر وزمان، وليس لها انتهاء طالما يوجد على الأرض من يؤمن بالله ويتقيه ـ باتباع أوامره، والانتهاء عما نهى عنه ـ ويحب الله ورسوله، وهذا هو ظاهر قول أبي عثمان الهجويري ـ أحد المتصوفة ـ حيث يقول: «فاعلم أن الولي لفظ جار على ألسنة الناس وجاء في القرآن وحديث الرسول . . . فمن هذا نرى أن الله اختار له أولياء اختصهم بصحبته واختارهم حكاما لملكه، ومنحهم أنواع الكرامات وطهرهم من فساد الطمع ومن وساوس النفس والهوى، وجمع أفكارهم فيه ومعرفتهم به، كانوا فيما مضى، وهم

(١) ابن تيمية ، الفتاوي الكبرى، جـ١١، ص ١٧٢/١٧٣

(٢) آل عمران / ٣١.

الآن كذلك، وإلى ما شاء الله إلى يوم القيامة[1].

ودون نظر الى ما يشتمُّ في هذا النص من رائحة وحدة الوجود (اختصهم بصحبته، وجمع أفكارهم فيه) فإن فيه اعترافا من أحد المتصوفة بدوام الولاية إلى يوم القيامة، وهذا مايقول به السلف الصالح، فإذا كانت الولاية دائمة ـ كما هو رأى السلف، وكما عرفنا من النص الذي قاله هذا المتصوف ـ كانت دعوى المتصوفة بختم الولاية غير متفقة مع مايقولونه من استمرار الولاية ـ كما عرفنا من نص أبو عثمان الهجويري ـ، وكان هذا رأيا معارضا لما عليه السلف الصالح وأهل السنة والجماعة.

والحق أن دعوى ختم الولاية دعوى باطلةودخيلة على الإسلام سواء أريد بها ختم زمان أو ختم رتبة ودرجة، اذ أن هذه الدعوى تنتج مفاسد كثيرة في الدين، بل هي محاولة لهدم أصول الأديان التي جاءت بها الرسل والأنبياء.

فالمتصوفة ترى أن النبوة نوعان: نبوة تشريع وهذه هي النبوة الخاصة التي جاء بها الرسل جميعا عن طريق جبريل ـ عليه السلام ـ وهذه النبوة قد ختمت بسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا نبي بعده، ولا نبوة ـ من هذا النوع ـ بعد هذه النبوة.

أما النبُوّة الثانية فهي نُبوة علم أو النبوة العامة، وهذه هي التي يتصف بها الأولياء، وهي نبوة لم تختم، بل هي باقية مستمرة إلى ماشاءالله، وإنما كانت باقية لأن «الله لطف بعباده فأبقى لهم النبوة العامة التي لاتشريع فيها[2]» فـ: «النبوة مختومة من حيث الإنباء» إذ لانبي بعد محمد عليه السلام، دائمة من حيث الولاية . . . فباب الولاية مفتوح وباب النبوة مسدود[3]».

فإذا كانت الولاية هي النبوة العامة كان مراد هذا المتصوف أن هناك نبوة عامة بعد سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وهذه النبوة باقية دائمة.

وتمتاز النبوة العامة ـ أي الولاية ـ بأن أهلها يأخذون علمها عن الله مباشرة حيث يتجلى الحق لهم ويشاهدونه، وبهذا يعصمون من الخطأ ومن وسوسة الشيطان

---

(١) أبو فارس الهجويري الفارسي، كشف المحجوب ص ٢١٠، كتاب: خاتم الاولياء ص ٤٦٣.

(٢) ابن عربي، فصوص الحكم جـ ١، ص ١٣٥

(٣) حيدر الأملي، نص النصوص، مخطوط مجلس الامة طهران، ختم الأولياء ص٥٠٢.

لذلك فالوحي الذي أتاهم وحي خالص لاتشوبه وسوسة ولا خطأ ولا نسيان ولا أي شيء يفسده[1] ! .

وهذه المرتبة تسمى بالنسبة للولاية «الولاية الخاصة» فهي بالنسبة للنبوة تسمى «نبوة عامة» وبالنسبة للولاية تسمى «ولاية خاصة[2]» فعمومها من جهة النبوة، وخصوصها من جهة الولاية، وبذلك فهؤلاء الأولياء لهم النبوة والرسالة العامة بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ التي هي الولاية الخاصة.

وأهل هذه الرسالة العامة أو قل الولاية الخاصة، هم أصحاب المشاهدة والعلم الكامل الذي أخذوه مباشرة عن الله تعالى، بخلاف نبوة التشريع التي كانت عن طريق جبريل.

وهذه الولاية الخاصة ـ الرسالة العامة ـ هي التي يتحقق فيها خَتْم الولاية، وخاتم الأولياء ، وليس المقصود بخاتم الأولياء عند المتصوفة الختم الزماني[3]، وإنما المقصود بالختم هو الوصول إلى هذا المقام الأعلى والأتم والأكمل في هذا الجانب، ومن وصل إلى هذا المقام كان هو الولي الخاتم، والولى الوارث، والآخذ عن الأصل، المشاهد للمراتب[4]، الذي استوفى مقام العيان[5].

وحتى لا يلتبس الأمر على القاريء أو على من يريد سلوك طريق التصوف وضع ابن عربي أنواع الولاية، وبين جانب الختم فيها، ومن هو الخاتم، فقال :

«وأما ختم الولاية فهى لرجل من العرب من أكرمها أصلا ويدا، وهو في زماننا اليوم موجود، عرفت به سنة خمس وتسعين وخمسمائة، ورأيت العلامةالتي له قد أخفاها الحق فيه من عباده وكشفها لي بمدينة فاس حتى رأيت خاتم الولاية منه ـ وهو خاتم النبوة المطلقة ـ لايعلمها كثير من الناس . . . وأما ختم الولاية العامة الذي لايوجد

---

(١) ابن عربي، الفتوحات المكية، جـ٣ ص٤٧. وأيضا الفصوص حـ١ ص ٦٢/٦٣/١٣٥/١٦٢/١٦٣.

(٢) ابن عربي، الفتوحات المكية، جـ٢، ص٢٤

(٣) إبراهيم هلال، قطر الولى على حديث الولى للشوكاني، مقدمة المحقق ٩٢.

(٤) ابن عربي ، فصوص الحكم جـ١، ص ٦٤

(٥) ابراهيم هلال، قطر الولي للشوكاني ص ٩٢

بعده ولي فهو عيسى عليه السلام . . . وقد جمعت بين صاحبي عبدالله (بدر الحبشي) وإسماعيل بن سودكين وبين هذا الختم (خاتم الولاية المحمدية) ودعا لهما وانتفعا به[1]».

وهذه الدعوى التي ليس لها سند واضح وصريح من القرآن أو السنة، دعوى فاسدة وباطلة، لم يقل بها إلا من كان بعيدا عن حقيقة الإسلام، بعيدا عن الطريق المستقيم الـذي جاء به محمد بن عبدالله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسار على هديه الصحابة والتابعون من بعده، واقتفى أثرهم على هذا الطريق أهل السنة والجماعة.

ولو كان ختم الولاية عقيدة إسلامية لكان قد بيَّنه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن مثل هذا القول لو كان صحيحا لكان من أصول الدين التي كلِّف الرسول بإبلاغها وتوضيحها للناس، لكن مثل هذا القول لم يثبت عن الرسول ولا عن أحد من صحابته، وإنما ظهر هذا على يد جماعة من الناس يدَّعون الاسلام وهم متأثرون بأفكـار فلسفية يونـانية وهنـدية، واقعـون تحت سلطان القـول بالحلول والاتحـاد النصراني، لذلك فهي فكرة مرفوضة من كل مؤمن مسلم بحق، وقد انتقدها وفندها وأبطلها كثير من العلماء الذين سلكوا طريق السلف الصالح في هذا، وكان من هؤلاء العلماء الـذين أبلوا بلاء حسنـا في سبيل الـدفـاع عن الاسلام ضد هذه التيارات الفـاسدة، ابن تيمية الذي تتبع دعوى ختم الولاية في كثير من كتبه ففندها وكفَّر القائلين بها، من ذلك قوله:

«إن دعوى المدعي وجود خاتم الأولياء، على ما ادعوه، باطل لا أصل له، ولم يذكر هذا عن أحد من المعروفين قبل هؤلاء إلا أبو عبدالله محمد بن على الترمذي الحكيم في كتاب «ختم الولاية» . . . ففي كلامه من الخطأ ما يَجِبُ رَدُّه، ومن أشنعها ما ذكره في ختم الولاية: مثل دعواه فيه أنه يكون من المتأخرين مَنْ درجتُه عند الله أعظم من درجة أبي بكر وعمر وغيرهما . . .

ولفظ خاتم الأولياء لايوجد في كلام أحد من سلف الأمة، ولا أئمتها، ولا له ذكر في كتاب الله ولا سنة رسوله، وموجب هذا اللفظ أنه آخر مؤمن تقي (ومهما يكن

---

(١) ابن عربي، الفتوحات المكية جـ٣، ص ٤٩

في الأمر) فإن الله يقول: (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون) فكل من كان مؤمنا تقيا كان لله وليا . . . وإذا كان خاتم الأولياء آخر مؤمن تقي في الـدنيا فليس ذلك الرجل أفضل الأولياء ولا أكملهم، بل أفضلهم وأكملهم سابقوهم الذين هم أخص بأفضل الرسل من غيرهم . . .

ثم إن خاتم الأولياء هذا صار مرتبة موهومة لاحقيقة لها، وصار يدعيها لنفسه أو لشيخه طوائف، وقد ادعاها غير واحد . . . كما ادعاها صاحب الفصوص وتابعه صاحب الكلام في «الحروف» وشيخ من أتباعهم كان بدمشق . . .

ثم صاحب الفصوص وأمثاله بنوا الأمر على أن الولى يأخذ عن الله بلا واسطة، والنبي يأخـذ بواسـطة المَلَك، ولهـذا صار خاتم الأولياء أفضـل عنـدهم من هذه الجهة !، وهذا باطل وكذب. فإن الولى لايأخذ عن الله إلا بواسطة الرسول إليه، وإذا كان محدَّثا فقد ألقى إليه شيء وجب عليه أن يزنه بما جاء به الرسول من الكتاب والسنة . . . والأولياء الذين قامت عليهم الحجة بالرسل لا يأخذون علم الدين إلا بتوسط رسل الله إليهم فكيف يكونون آخذين عن الله بلا واسطة، ويكون هذا الأخذ أعلى وهم لا يصلون إلى مقام تكليم موسى، ولا إلى مقام نزول الملائكة عليهم كما نزلت على الأنبياء ؟ . . .

وأعـظم من ذلـك زعم (ابن عربي) أن الأولياء والرسل من حيث ولايتهم تابعون لخاتم الأولياء وآخذون من مشكاته، فهذا باطل بالعقل والدين، فإن المتقدم لا يأخذ من المتأخر، والرسل لايأخذون من غيرهم، وأعظم من ذلك أنه جعلهم تابعين له في العلم بالله الذي هو أشرف علومهم[1]».

ويتابع ابن تيمية هدمه ونقضه لدعوى خاتم الأولياء في مصدر آخر فيقول:

«الكلام هنا فيما يذكرونه من خاتم الأولياء فنقول: هذه تسمية باطلة لا أصل لها في كتاب ولا سنة ولا كلام مأثور عمن هو مقبول عند الأمة قبولا عاما. لكن يعلم من حيث الجملة أن آخر من بقى من المؤمنين المتقين في العالم فهو آخر أولياء الله.

---

(١) ابن تيمة، مجموعة الرسائل والمسائل (لجنة التراث العربي)، (حقيقة مذهب الاتحاديين) حـ ٤، ص ٥٦ ـ ٦٦.

ونقول ثانيا : إن آخر الأولياء أو خاتمهم سواء كان المحقق (كما ادعاه ابن عربي لنفسه، والشيعة لعلي) أو فرض مقدر (كما قال بهذا بعض الصوفية وبعض الشيعة في المهدى) ليس يجب أن يكون أفضل من غيره من الأولياء فضلا عن أن يكون أفضلهم، وإنما نشأ هذا من مجرد القياس على خاتم الأنبياء لما رأوا خاتم الأنبياء هو سيدهم توهموا من ذلك قياسا بمجرد الاشتراك في لفظ الخاتم فقالوا : خاتم الأولياء أفضلهم، وهذا خطأ في الاستدلال، فإن فضل خاتم الأنبياء عليهم لم يكن لمجرد كونه خاتما بل لأدلة أخرى دلت على ذلك[1]، ثم نقول: بل أول الأولياء في هذه الأمة وسابقهم هو أفضلهم، وذلك لأن الولى مستفيد من النبي وتابع له، فكلما قرب (من النبي كان أفضل) وكلما بعد عنه كان بالعكس ، بخلاف خاتم الأنبياء فإن استفادته إنما هى من الله، فليس في تأخره زمانا مايوجب تأخر مرتبته ، بل قد يجمع الله له ما فرقه في غيره من الأنبياء، فهذا الذي ذكرناه من أن السابقين من الأولياء هم خيرهم، هو الذي دل عليه الكتاب والسنة المتواترة[2]، وإجماع السلف[3].

ثانيا : أيضا مما يلاحظ على هذه الشروط والصفات، أنه لا يلزم تحققها كلها في إنسان ما وإن كان هذا هو الأفضل والأكمل كما لايلزم أن يكون تحقق أحدها تحققا تاما وكاملا، فقد يأتي بعض الأولياء بكل النوافل، وقد يأتي بعضهم بشيء منها وليس كلها، وقد يقع من بعضهم خطيئة ومعصية تتجافى مع الإيمان والتقوى، لكن هذا لاينفي الولاية عنه بالكلية ـ كما هو رأي السلف الصالح ـ مادام قد تحقق فيه عنصرا الإيمان والتقوى ، وهذا هو ما يدل عليه قول الله تعالى :

---

(١) من ذلك مثلا قوله عليه الصلاة والسلام : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع» مسلم، كتاب الفضائل، وقوله عليه السلام : «فضلت على الأنبياء بستٍ: أعطيت جوامع الكَلِم، ونُصرت بالرعب، وأُحلَّتْ لى الغنائم، وجُعلتْ لى الأرض طهورا ومسجدا، وأرسِلْتُ الى الخلق كافة، وختم بي النبيون «مسلم كتاب المساجد».

(٢) من ذلك قوله تعالى : «والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الانهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم» التوبة / ١٠٠، وقوله عليه السلام : «خير أمتي القرْن الذي يلوني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» مسلم، فضل الصحابة.

(٣) ابن تيمية، الفتاوي الكبرى، جـ ١١، ص ٣٦٥/٣٦٦.

« أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ »[1].

واذا كان هذا هو رأي السلف الصالح وأهل السنة والجماعة، فإن المتصوفة قد خالفوا في هذا وظهروا برأي لم يقل به الرسول ﷺ ولا الصحابة من بعده، ذلك هو قولهم بعصمة الولي من الخطأ.

فكثير من المتصوفة قد أسبغ صفة العصمة من الذنوب على أولياء الله تعالى، بحجة أن هذه العصمة ضرورية لكل ولي حتى يتمكن من توصيل العلم اللدُنّي إلى أهله ومستحقيه دون خطأ أو نسيان، ومن هذا الادعاء قول القشيري : «من شرط الولي أن يكون محفوظا كما أن من شرط النبي أن يكون معصوما[2]»، والعقل لا يرى فرقا بين الحفظ والعصمة، فكلاهما يعني عدم وقوع المعصية من النبي والولي، واللغة كذلك لا ترى فارقا بين الحفظ والعصمة، ففي مختار الصحاح : العصمة : المنع، والعصمة أيضا الحفظ، «ويجب أن ننبه إلى أن الصوفية في كثير من الأحوال قد يعبرون عن العصمة بالحفظ مثل ما قال الكلاباذي (ولطائف الله في عصمة أنبيائه وحفظ أوليائه من الفتنة أكثر من أن تقعَ تحت الاحصاء والعدّ) فنجد هنا مقابلة بين عصمة الأنبياء وحفظ الأولياء . . . فقد أطلقوا الحفظ في جانب الأولياء ولكن أرادوا به العصمة التي تكون للأنبياء، فإننا إذا حللنا معنى الحفظ وجدناه بمعنى المنع، والعصمة هي المنع[3]».

ولسنا في حاجة إلى هذا التفسير وهذه المحاولة للربط بين الحفظ والعصمة لأن الصوفية قد صرحوا بهذه العصمة ، فقال القشيري :

«فإن قيل فما معنى الولي ؟ قيل يَحتمِل أمرين أحدهما أن يكون فعيلا مبالغة من الفاعل كالعليم والقدير وغيره فيكون معناه : من توالت طاعاته من غير تخلل معصية، ويجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعول كقتيل بمعنى مقتول وجريح بمعنى

---

(١) يونس : ٦٢/٦٣.

(٢) القشيري (أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك بن طلحة القشيري) الرسالة القشيرية ، (تحقيق د/ عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف، دار الكتب الحديثة) جـ٢ ، ص٥٢٠.

(٣) ابراهيم هلال، ولاية الله والطريق اليها (أو قطر الولي على حديث الولي للشوكاني) ص ٧٥/٧٦.

مجروح وهو الذي يتولى الحقُّ سبحانه حفِظه وحراسته على الادَامَةِ والتوالي فلا يخلق له الخذلان الذي هو القدرة على العصيان وإنما يديم توفيقه الذي هو قدرة الطاعة[1]»، ومن القول الصريح في هذا قول القشيري : «واعلم أن من أجلّ الكرامات التي تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعات والعصمة عن المعاصي والمخالفات[2]».

وليس القشيري وحده هو الذي يقول بعصمة الولي وإنما كثير من المتصوفة يقول بذلك، فابن عربي يشترط في الإمام الباطن أن يكون معصوما ـ وليس الظاهر إن كان غيره ـ ويكون له مقام العصمة[3]، وقد سبق أن ذكرنا ماقاله الكلاباذي في هذا الموضوع.

وهذه الدعوى، دعوى عصمة الأولياء لا أصل لها في الاسلام، وإنما نشأت تبعا لأهواء شخصية أو لأغراض سياسية، كالقول بعصمة الأئمة عن الشيعة، وعصمة الأولياء عند المتصوفة ليكون ذلك وسيلة لبعضهم كي يعيثوا في الأرض فسادا مستندين في هذا كله إلى العصمة التي لم تجب لأحد إلا للرسل، وما من أحد من الناس إلا يؤخذ من كلامه، ويُرد؛ إلا رسل الله وأنبياءَه عليهم افضل الصلاة والتسليم.

ومن يدعي العصمة لنفسه أو لشيخ أو لولي من أولياء الله استنادا على دعوى الولاية فقد زاد على الاسلام ونسب إليه ماليس منه، وكل ما يدعيه المتصوفة في هذا الباب هو قول بعيد عن مفهوم القرآن والسنة، ومخالف لما عليه السلف الصالح الذي يرى أنه : «ليس من شرط ولي الله أن يكون معصوما ولا يخطيء، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة[4]، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين حتى يحسب بعض الأمر مما أمر الله به ومما نهى عنه[5]، ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من

---

(١) القشيري، الرسالة القشيرية ص ٦٦٤/٦٦٥

(٢) المرجع السابق ص ٦٦٧

(٣) ابن عربي، الفتوحات المكية، جـ ٣ ص ١٨٣

(٤) ولعل من هذا، ما روى عن عمر أنه نهى أن يزاد في الصداق على أربعمائة درهم، فقالت له امرأة : أما سمعت قول الله تعالى «وآتيتم إحداهن قنطارا» فقال اللهم عفوا، كل الناس أفقه من عمر (فقه السنة لسيد سابق، جـ٢ ص ١٣٧.

(٥) كتوقف عمر في قتال ما نعى الزكاة أول الأمر.

كرامات أولياء الله تعالى وتكون من الشيطان، لبسها عليه لنقْص درجته ولا يعرف أنها من الشيطان لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه فقال تعالى : (آمَنَ الرسول بما أُنزل إليه من ربه (. . .) فانصرنا على القوم الكافرين) وقد ثبت في الصحيح أن الله سبحانه استجاب هذا الدعاء وقال قد فعلت[1] » .

وقد تتبع ابن تيمية هذه الدعوى الفاسدة في كثير من كتبه ورسائله فدحضها وأبطلها وأثبت أنها لاتقوم على أصل من أصول الاسلام، وقد أدخلت إلى الإسلام زورا وبهتانا .

وكيف يكون الولي معصوما وهذا هو عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قد أثنى عليه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث ثبت في الصحيح أنه عليه السلام قال :

«قد كان في الأمم قبلكم محدَّثون فإن يكن في أمتي أحد فعمرُ منهم» وقد روى الترمذي : أنه عليه السلام قال : «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه» ، وقال ابن عمر : «ماكان عمر يقول في شيء إني لأراه إلا كان كما يقول . . الخ .

فعمر مع هذا الثناء وهذه المحادثة والمشاهدة التي أثبتها له الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يعرض ما يقع له على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتارة يوافقه فيكون ذلك من فضائل عمر ، وتارة يخالفه فيرجع عمر عن ذلك كما رجع يوم الحديبية لما كان قد رأى محاربة المشركين، فلقد اعتمر المسلمون عام ستّة من الهجرة ولكن قريشا منعت المسلمين من دخول مكة، وبعد مراجعة بين الرسول وبين قريش تم الصلح بين الطرفين على أن يرجع الرسول والمسلمون هذا العام ثم يأتون في العام المقبل، وشرط الرسول لقريش شروطا رأى فيها المسلمون شيئا من الغضاضة حتى أن عمر قال للرسول يارسول الله ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال «بلى» قال أفليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال «بلى» قال فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟

---

(١) ابن تيمية ، اولياء الرحمن ٤٤ .

فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم «إني رسول الله وهو ناصري ولستُ أعصيه، ثم قال عمر : أفلم تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به ؟ قال «بلى» قال : أقلت لك إنك تأتيه العام ؟ قال : لا، قال إنك آتيه ومُطوِّف به فذهب عمر إلى أبي بكر ـ رضى الله عنه ـ فقال له مثل ما قال للنبي صلى الله عليه وسلم، ورد عليه أبو بكر مثل جواب النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يكن أبو بكر يسمع جواب النبي فكان أبو بكر أكمل موافقة لله وللنبي من عمر ، ورجع عمر عن رأيه[1] فأين العصمة هنا ؟ وكيف يكون الولي معصوما وهذا عمر بن الخطاب الذي شهد له الجميع بالتحديث والمشاهدة ومع هذا رأى رأيا كان رأي الرسول أفضل منه بل كان كذلك رأى أبو بكر الصديق .

وفي موت الرسول صلى الله عليه وسلم أنكر عمر أن يكون الرسول قد مات[2] ، وكذلك امتناع عمر عن قتال مانعي الزكاة أول الأمر فلما تبين له أن الحق فيما يراه أبو بكر أخذ برأيه ، يقول عمر : «فما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبى بكر بالقتال فعرفتُ أنه الحق»[3] .

إذن فالولي ليس بمعصوم كما يدعي بعض المتصوفة ، وإنما يسرى عليه ما يسري على بني الانسان من الخطأ والنسيان، وفي توبة الرسول صلى الله عليه وسلم في اليوم أكثر من سبعين مرة ـ كما ورد في الأحاديث ـ تعليم لكل مسلم وإرشاد له بأن يتوب إلى الله تعالى دائما وأبدا، وبالتالي أن لا يعتقد لنفسه ـ أو لغيره ـ عصمة من الذنوب ، وإلا فما الداعي إلى التوبة إذا كان معصوما ؟

ولو كان معصوما من الذنوب لكان جميع الأولياء في مرتبة واحدة لأن الولي إذا كان لا يقع في معصية أبدا ولا يخطيء أبدا كان في طاعة مستمرة ـ لأن المعصية والطاعة إذا انتفى أحدهما وجد الآخر، وعدم الطاعة معصية ـ وهذا يعني أن جميع الأولياء في درجة واحدة وهذا أمر لم يقل به أحد لا من السلف ولا من المتصوفة أنفسهم .

---

(١) البخاري مصطفى الحلبي ـ ١٣٤٥هـ ـ باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ـ حـ٣ ص ٢٥٦ .

(٢) أخرجه البخاري عقب باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : لو كنت متخذا خليلا، في المناقب جـ ٦/٥ .

(٣) االبخاري، كتاب الزكاة، باب ٤٠ .

ويصرح الشوكاني بهذا الحكم فيقول :

«وأعلم أن اولياء الله غير الأنبياء ليسوا بمعصومين، بل يجوز عليهم ما يجوز على سائر عباد الله المؤمنين»[1] .

ولم يكتف الشوكاني بهذا القول الحق والحكم الصحيح ، وإنما كَرَّ على دعوى العصمة هذه فنقضها وأبطلها بأدلة واقعية ، فهذا هو عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه كان مشهودا له بأنه من المحدَّثين بالنص النبوي (إن في هذه الأمة محدَّثين وإن منهم عمر) ومع هذا كان يشاور الصحابة ويشاورونه ، يراجعهم ويراجعونه ، يحتج عليهم بالكتاب والسنة ، ويرجعون جميعا إليهما ، ويردون ما اختلفوا فيه إلى ما أمر الله بالرد اليه ، من الرد إلى الله سبحانه وإلى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فالرد إلى الله هو الرد إلى كتابه ، والرد إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد موته هو الرد إلى ما صح من سنته[2] » .

فإذا كان عمر ـ رضى الله عنه ـ يشاور الصحابة ويسألهم ويستفتيهم ويراجعهم ويراجعونه ، وقد يختلفون فيحتكمون إلى كتاب الله وسنة رسوله ، كان هذا دليلا على أنه ليس بمعصوم وإنما مثله في هذا كسائر عباد الله قد يخطيء وقد ينسى ، ولكن هذا لايعيب الولى في ولايته لأن الله رفع عن أمة الإسلام الخطأ والنسيان وما استُكرِهوا عليه .

وبهذا الرد الذي أراه مقْنعا يتضح لكل ذي عقل أن القول بمعصية الأولياء غلوّ في الـدين وخـروج عن منهجه الصحيح ، ودخول في متاهات الفلسفات المستوردة والأفكار الشخصية الدخيلة على الإسلام ، والصحيح الذي يؤيده الكتاب والسنة أن أي ولي عرضة للوقوع في الخطأ والنسيان .

وإذا جاز الخطأ والنسيان على الولي ـ كما تأكد لنا هذا ـ وجب على كل مسلم أن يعرض ما يظهر على الولي أو ما يراه منه على كتاب الله وسنة رسوله ، فإن كان متفقا معهما أخذ به وعمل بمضمونه لأنه لم يخرج عن شرع الله ، وإن رآه مخالفا لكتاب الله

---

(١) الشوكاني، قطر الولي ص ٢٣٣

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٥ .

وسنة رسوله، ضرب به عُرْض الحائط حتى لو كان هذا الشخص يمشي على الماء أو يطير في الهواء[1]، فهذا وإن كان أمراخارقا لكنه ليس بكرامة بل هو استدراج، لأنه تعالى لا يكرم من يعتدي على شرعه ويخالف أوامره ويرتكب ما نهى عنه بمثل هذه الكرامات الخارقة.

كذلك لايشترط في الولي أن يكون على صفة معينة من الملابس المزركشة أو المرقعة أو الشعور المسترسلة ، أو الرؤوس المحلوقة ـ كلها أو بعضها ـ بصورة خارجة عما اعتاده الناس . . الخ، ويقول ابن تيمية محذرا من مثل هذه الصور، مخرجا إياها من الولاية الشرعية الصحيحة :

«وليس لأولياء الله شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات، فلا يتميزون بلباس دون لباس إذا كان كلاهما مباحا، ولا بحلق شعره أو تقصيره أو ظفره إذا كان مباحا[2]».

والسفاريني الحنبلي قد ذكر هذه الشروط بصورة أخرى حيث اشتملت الشروط التي ذكرها على أركان الإيمان والأخلاق الحميدة، إلى جانب أمور أخرى لم يذكرها ابن تيمية ، يقول السفاريني :

«قال بعض المحققين للولي أربعة شروط : أحدها : أن يكون عارفا بأصول الدين حتى يفرق بين الخلق والخالق ، وبيت النبي والمتنبي، الثاني : أن يكون عالما بأحكام الشريعة نقلا وفهما ليكتفي بنظره عن التقليد في الأحكام الشرعية، كما اكتفى عن ذلك في أصول الدين، فلو أذهب الله علماء أهل لأرض لوجد عنده ما كان عندهم ولأقام قواعد الإسلام من أولها إلى آخرها[3]، الثالث : أن يتخلق بالأخلاق المحمودة التي دل عليها الشرع والعقل من الورع عن المحرمات بل والمكروهات، وامتثال المأمورات، وإخلاص العمل، وحسن المتابعة والاقتداء، الرابع : أن يلازمه الخوف أبدا واحتقار النفس سرمدا، وأن ينظر الى الخلق بعين الرحمة والنصيحة، وأن

---

(١) ابن تيمية، الفتاوي الكبرى، جـ١١، ص ٢٠٣/٢٠٤

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٤

(٣) يرى السفاريني أن هذا الشرط غير معتبر في مُطْلق الولي، وإن كان معتبرا في المجتهد دون مطْلق الولي.

يبـذل جهـده في مراقبـة محاسن الشريعـة ومـطالعة عيوب النفس وآفاتها، والخوف بملاحظة السابقة والخاتمة[1]».

وهذه الشروط التي ذكرناها إنما تعطينا طبقة خاصة من الأولياء، ولا تشمل كل المؤمنين المتقين ـ كما هو رأي ابن تيمية ـ فالسفاريني قد اشترط في الولي معرفة أصول الدين كي يفرق بين النبي والمتنبي، ومعنى هذا أن المؤمن التقى الذي لا يستطيع القيام بهذا التفريق لايكون وليا، وهذا بالطبع يخرج كثيرا من عامة الناس الذين آمنوا واتقوا ولكنهم لا يستطيعون القيام بهذا التفريق، وهذا الشرط يخالف ما ذكره ابن تيمية ـ في كتبه ورسائله ـ وشارح العقيدة الطحاوية من اشتراط الإيمان والتقوى دون أن يلزم على هذا مقدرة الولي على التفريق بين النبي ومدعي النبوة ـ نعم هذا مايجب أن يكون ـ لكن لو وجد من هو مؤمن تقي لايعرف هذا الفرق ، فهو ليس بوَلِيّ على شرط السفاريني، لكنه ولِيّ على شرط ابن تيمية وشارح الطحاوية، كذلك الشرط الرابع ينتج طبقة عالية من الأولياء، حيث لا يدخل في هذه الولاية كثير من المؤمنين الأتقياء الذين لا يتوفر فيهم احتقار النفس سرمدا، ومطالعة عيوبها وآفاتها والخوف بملاحظة السابقة والخاتمة.

وأيا ماكـان الأمر، فبالجمع بين ما قاله السفاريني وابن تيمية وغيرهما يتكون عندنا طبقات مختلفة من الأولياء بعضها يشمل عامة المؤمنين الأتقياء ، وبعضها الآخر يكون في مرتبة أعلى ودرجة أفضل، لكن يجمع الكل، الإيمان والتقوى، ثم تختلف هذه الطبقة عن تلك الطبقة علوا أو انخفاضا تبعا لازدياد الإيمان والتقوى أو نقصهما.

---

(١) السفاريني، لوامع الأنوار البهية، جـ٢، ص ٣٩٧.

طبقات الولاية[1] :

إذا تتبعنا آيات القرآن الكريم فإننا سنجد أن ولاية الخير والأخيار (أولياء الرحمن) قسمان : قسم أطلق عليه ابن تيمية وشارح الطحاوية[2] «طبقة السابقين المقربين» وقسم أطلقا عليه «طبقة أصحاب اليمين المقتصدين»، ولكل طبقة من هاتين الطبقتين أعمالها، وصفاتها ودرجاتها في الجنة، فالذين قصروا في بعض الأعمال هم المقتصدون وهم أهل اليمين، والذين تسابقوا مع أنفسهم فلم يروا عملا صالحا إلا قاموا به خير قيام، ولم يروا عملا سيئا إلا تبرءوا وطهروا قلوبهم وأرواحهم من دنسه هم السابقون المقربون.

أصحاب اليمين :

وهؤلاء هم الذين يؤتون كتابهم بأيمانهم، وهم أصحاب المنزلة السنية، أو أنهم أصحاب اليمين لأن السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم، وقيل الناس ثلاثة، رجل ابتكر الخير في حداثة سنه ثم داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا السابق المقرب، ورجل ابتكر عمره بالذنب وطول الغفلة ثم تراجع بتوبة فهذا صاحب اليمين، ورجل ابتكر الشر في حداثة سنه ثم لم يزل عليه حتى خرج من الدنيا فهذا صاحب الشمال[3].

فأصحاب اليمين خلطوا عملا صالحا بآخر سيئا، أو مرت بحياتهم فترة كانوا فيها غافلين عن عمل الصالحات واقعين في المحرمات ، لكنهم مع هذا يأخذون كتابهم بأيمانهم ، وهم أصحاب المنزلة السنية، كما قال سبحانه وتعالى :

«وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سِدْر مخضود وطلح منضود وظل ممدود

---

(١) راجع هذه الطبقات والمراتب في فتاوي ابن تيمية جـ١١ ص ١٧٦ وما بعدها، وكذلك كتابه : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ص ٢٥ وما بعدها.

(٢) على ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٤٢.

(٣) الزمخشري ، تفسير الكشاف ، جـ٤ ص ٥٢

وماء مسكوب وفاكهة كثيرة لامقطوعة ولا ممنوعة وفُرُشٍ مرفوعة إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهنَّ أبكارا عُرُبا أترابا لأصحاب اليمين ثلة من الأولين وثلة من الآخرين[1]».

وابن تيمية يوضح هذه الطبقة من الأولياء فيقول :

«فالأبرار أصحاب اليمين هم المتقربون إليه (أي إلى الله) بالفرائض يفعلون ما أوجب الله عليهم ويتركون ماحرم الله عليهم، ولايكلفون أنفسهم بالمندوبات ولا الكف من فضول المباحات[2]»، فهم قصروا في ناحيتين : عدم القيام بالمندوبات، والاكثار من فضول المباحات، لذلك كانوا من أصحاب اليمين ولم يصلوا إلى مرتبة السابقين.

ولأن هذا الفريق قصر بعض الشيء، كانت مرتبته أقل من مرتبة السابقين، لذلك فإن شراب هذا الفريق يمزج له مزجا كما قال سبحانه وتعالى : «إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا[3]»، فهنا قال سبحانه يشربون من كأس، وهذا لا يدل على الارتواء التام كما هو الحال في السابقين الذين سنعرفهم فيما بعد، يقول ابن تيمية : «عن ابن عباس رضى الله عنهما وغيره من السلف قالوا : يمزج لأصحاب اليمين مزجا، ويشرب بها المقربون صرفا وهو كما قالوا فإنه تعالى قال (يشرب بها) ولم يقل يشرب منها، فإذا قيل يشربون منها لم يدل على الري، فإذا قيل يشربون بها كان المعنى يُرْوَوْن بها، فالمقربون يروون بها فلا يحتاجون معها إلى مادونها فلهذا يشربون منها صِرْفا، بخلاف أصحاب اليمين فإنها مزجت لهم مزجا[4].

وهذه الطبقة تشمل عامة المؤمنين، ولايخرج عنها إلا من كان غير مؤمن وكان بعيدا عن التقوى، وهي بمثابة التمهيد للطبقة التالية، طبقة السابقين ، فإن ترقي صاحب هذه الطبقة في أعماله الصالحة فأكثر منها، وقلل من فضول المباحات فإنه إن شاءالله يكون من طبقة السابقين المقربين.

---

(١) سورة الواقعة : ٢٧ ـ ٤٠

(٢) ابن تيمية ، أولياء الرحمن ص ٢٩ / ٣٠

(٣) سورة الانسان : ٥

(٤) ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٢٧

السابقون المقربون :

هذه هي الطبقة العليا في الولاية، وأصحابها هم أعلى درجات الأولياء ، وهي طبقة الرسل والأنبياء والصديقين والشهداء، وأصحاب هذه الطبقة أخص وأقرب من أصحاب اليمين، فهي قريبة من الرحمن أكثر مما عليه أصحاب اليمين، يقول ابن كثير : «والسابقون قيل هم الذين اذا أعطوا الحق قبلوه، وإذا سئلوه بذلوه وحكموا للناس حكمهم لأنفسهم، وقيل هم الأنبياء عليهم السلام، وقيل هم أهل عليين، وقيل هم الذين صَلُّوا إلى القبلتين ، أو أنهم أولهم رواحا إلى المسجد، وأولهم خروجا في سبيل الله، وهذه الأقوال كلها صحيحة، فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما قال تعالى : (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض) وقال تعالى : (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) فمن سابق في هذه الدنيا وسبق إلى فعل الخير كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة فإن الجزاء من جنس العمل[1]».

ويقول الزمخشري في تعريف أصحاب هذه الطبقة : «وهم الخلَّص الذين سبقوا إلى ما دعاهم الله إليه وشقوا الغبار في طلب مرضاة الله عز وجل[2]».

أما ابن تيمية فيوضح هذه الطبقة توضيحا دقيقا فيقول : «وأما السابقون المقربون فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض، ففعلوا الواجبات والمستحَبات وتركوا المحرمات والمكروهات[3]».

ونضيف إلى هذا أن من صفات السابقين أيضا : الكف عن فضول المباحات، لأنه إذا كان أصحاب اليمين لايكفون عن فضول المباحات ـ لذلك كانوا أقل درجة من السابقين ـ كان السابقون تاركين لفضول المباحات لذلك كانوا أعلى درجة من أصحاب اليمين.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم جـ٤ ص ٢٨٣

(٢) الزمخشري، تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٢

(٣) ابن تيمية ، أولياء الرحمن ص ٣٠

ولأن هذه الطبقة بمثل هذه المثابة، عملا صالحا وتوجها إلى الله تعالى، وقربا منه عز وجل، كانت طبقة أفضل ثوابا وقربا من الله تعالى، ففي ثوابها ودرجتها في الجنة، يقول عز وجل: «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا»[1].

وقد جمع المولى عز وجل هاتين الطبقتين في الحديث القدسي الذي يقول:

«من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلّي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها[2]».

وإذا كانت طبقة السابقين أعلى مرتبة وفضلا من طبقة أصحاب اليمين، فإن هذه الطبقة ليست على وتيرة واحدة، وليست على درجة واحدة، وأصحابها ليسوا سواء، فليس يتساوى الرسول مع النبيين، وليس يتساوى النبي مع الصديقين والشهداء، ولهذا نرى ابن تيمية صنف هذه الطبقة إلى درجات كما يلي[3]:

١ ـ مرتبة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهي أعلى المراتب في الولاية، والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أفضل الأولياء وأعلاهم مرتبة، وقد أهله لهذا أنه: «خاتم النبيين، وإمام المتقين، وسيد ولد آدم، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا . . . (و) صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، وصاحب لواء الحمد، وصاحب الحوض المورود، وشفيع الخلائق يوم القيامة، وصاحب

---

(١) سورة الواقعة: ١٠ ـ ٢٦.

(٢) البخاري، جـ٨، ص ١٠٥ باب التواضع.

(٣) بالمقارنة بين أقوال المفسرين بشأن السابقين المقربين وهذه الدرجات التي ذكرها ابن تيمية يتبين لنا أن أصحاب هذه الدرجات إنما هم المقصودون بطبقة السابقين المقربين، وإن كان ابن تيمية لم يذكر هذا حين وضع هذه الدرجات ولم ينص على أنها لطبقة السابقين المقربين.

الوسيلة والفضيلة[1].

وهذا حق وصِدْق، فسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيد المرسلين وإمام المتقين بحق، وهو في قمة درجات الأولياء كما هو كذلك في الأنبياء، ولكن الذي ليس بحق ولا صدق، ما يدَّعيه بعض المتصوفة زورا وبهتانا من علوّ درجة الولاية على درجة النبوة ـ إن لم يكن مطلقا ففي بعض النواحي ـ أو أن الولي قد يكون أعلى من النبي !

فالمتصوفة ـ كابن عربي وغيره ـ يدعون أن الولي أعلى قدرا وأرفع منزلة من النبي ، وأن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء ، لأن جميع الأنبياء يصلون إلى معرفة الله عن طريق مشكاة خاتم الأولياء[2] !!

فإذا كان النبي يأخذ العلْم والمعرفة من الله عن طريق المَلَك، فالولي يأخذ هذا العلم وهذه المعرفة من المعدن الذي يأخذ منه المَلَك الذي يأتي خاتم الأنبياء، فهم ـ أي الأولياء ـ يأخذون علمهم مباشرة عن الله تعالى تجليا ومشاهدة، ولأنهم أهل ذوق أدركوا بهذا الذوق؛ علْم الوجود ووقفوا على سر القدر[3]، فكانوا أعلى قدرا من الأنبياء !!

وليس أدل على هذا التفضيل من تسمية الله نفسه باسم متشقق من الولاية، فالله تعالى قد تسمى باسم الولي ولم يسم نفسه باسم النبي.

والمتصوفة حين قالوا بهذا الرأى كانت لهم حجتهم وأدلتهم التي استندوا إليها من ذلك مثلا :

«وما قيل إن الولاية أفضل من النبوة لايصح مطلقا إلا بتبيين : وهو أن ولاية النبي أفضل من نبوته التشريعية، لأن نبوة التشريع متعلقة بمصلحة الوقت والولاية لاتعلق لها بوقت بل قام سلطانها من بداية الأمر إلى نهايته، وأيضا النبوة صفة الخلق دون الحق، والولاية صفة الحق مضافة إلى الخلق، ولهذا يطلق عليه (= الله) اسم

---

(١) ابن تيمية، الفتاوي الكبرى جـ ١١ ص ١٦٢

(٢) ابن عربي، فصوص الحكم، الفص الشيثي جـ١، ص ٦٢

(٣) السابق ص ١٣٢

الولى لقوله تعالى «الله ولى الذين آمنوا[1]» الآية.

ونعقب على هذا بأنه ليس في الاسلام تقسيم النبوة إلى تشريعية وغير تشريعية، وإنما هناك نبوة واحدة لمحمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم ـ اشتملت على التشريعات والعقائد، والأخلاق والسياسة، والبيوع والمعاملات . . الخ.

والنبوة التي نزلت على محمد بن عبدالله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاءت حياة للروح والجسد، وفيها صلاح الحياة الدنيوية والأخروية، لأنها قامت على كتاب الله وسنه رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وليس بعدهما ما يصلح النفوس وينقي الأرواح ويريح الأجساد، «إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم[2]» «يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ[3]» «وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ[4]».

ولقد وصل الأمر ببعض الصوفية في هذا التفضيل إلى الحد الذي يوحي بمشاركة الولى لله فيما اختص نفسه من أعمال وتصريف لشئون الكون، وإلى الحد الذي يكاد يحرم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أولية الحشر كما قال عليه السلام «وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبى[5]» وأولية الشفاعة كما قال صلى الله عليه وسلم «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع[6]» وحتى لانكون مدعين بغير دليل فهذا قوله الذي يقول فيه : جعل الله الأولياء والعلماء للناس بعد الأنبياء خلفا كما قال تعالى : «ويستخلفكم في الأرض» ليكونوا للخلق غياثا فبهم يسقون وبهم يرزقون وهم غياث الخلق كلما مات منهم رجل خلفه آخر، حتى إذا انقرض عددهم ابتعث الله وليا اصطفاه واجتباه وقربه وأدناه فهو على منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حفظه وحماه عن كيد النفس والعدو . . .

---

(١) حيدر الآملي، نص النصوص، مخطوط مكتبة مجلس الامة، طهران ملحق رقم ١٩ كتاب ختم الأولياء ص ٥٠٢.

(٢) الاسراء / ٩.

(٣) يونس / ٥٧.

(٤) الاسراء / ٨٢.

(٥) صحيح مسلم، جـ١٥، ص ١٠٤ باب في أسمائه صلى الله عليه وسلم.

(٦) صحيح مسلم ، باب تفضيل نبينا على جميع الخلائق.

فإذا برز الأولياء فهو سيدهم ساد الأولياء، كما ساد محمد صلى الله عليه وسلم الأنبياء فينصب له مقام الشفاعة . . فلم يزل هذا الولي . . . أولا في الذكر وأولا في العلم ثم (هو) الأول في المشيئة ثم الأول في المقادير ثم الأول في اللوح ثم الأول في الميثاق ثم الأول في المحشر ثم الأول في الخطاب ثم الأول في الوفادة ثم الأول في الشفاعة ثم الأول في الجوار ثم الأول في دخول الدار ثم الأول في الزيارة فهو في كل مكان أول الأولياء كما كان محمد صلى الله عليه وسلم أول الانبياء[1]».

فأين محمد بن عبدالله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هذه الفضائل التي نسبها هذا الصوفي للولي ؟ وكيف يكون الولي الذي على هذه الصورة أولا في الشفاعة والأحاديث الصحيحة قد أثبتت هذه الأولية لسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ؟ وكيف يكون الأولياء غياث الخلق والله وحده هو غياث الخلق أجمعين ؟ أليس في هذا الكلام شِبْهَ مشاركةٍ للولي في الأعمال الخاصة بالله تعالى ؟ إن هذا القول من الصوفية يضعهم في طائفة المنحرفين عن صراط الله المستقيم ومنهج الإسلام القويم.

أما ابن عربي فهذا يصرح بأفضلية الولى على النبي مستشهدا في هذا بنزول القرآن برأي عمر بن الخطاب ، فهذا في رأيه دليل على أن الولي في بعض الأحيان يكون أفضل من النبي ، ذلك أنه :

«وإن كان خاتم الأولياء تابعا في الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع فذلك لايقدح في مقامه، ولا يناقض ماذهبنا إليه، فإنه من وجه يكون أنزل كما أنه من وجه يكون أعلى، وقد ظهر في ظاهر شرعنا مايؤيد ماذهبنا إليه في فضل عمر في أَساري بدر بالحكم فيهم، وفي تأبير النخل، فما يلزم الكامل أن يكون له التقدم في كل شيء، وفي كل مرتبة[2]».

وقال بعض دعاة الولاية : «وهذا الفناء موجب لأن يتعين العبد بتعينات حقانية ، وصفات ربانية ، مرة أخرى وهو البقاء بالحق، فلا يرتفع التعين منه مطلقا، وهذا

---

(١) عمار البدليسي، بهجة الطائفة ، مخطوط برلين رقم ٢٨٤٢، ٤٣/ب ـ ٤٤/أ ص ٤٧١ من كتاب : ختم الأولياء ، ص ٤٧١.

(٢) ابن عربي (الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي المتوفي سنة ٦٣٨هـ) فصوص الحكم والتعليقات عليه، بقلم الدكتور أبو العلا عفيفي (الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان) الفص الشيثي، جـ١، ص ٦٢/٦٣.

المقام دايرة أتم وأكبر من دايرة النبوة، لذلك انختمت النبوة، والولاية دايمة، وجعل الـولي اسما من أسماء الله تعالى دون النبي، ولما كانت الولاية أكبر حيطة من النبوة وباطنا لها شملت الأنبياء والأولياء»[1].

وقبل أن نرد على هؤلاء الناس يرد على الذهن سؤال : ما الحكم فيمن فضل الولى على النبي ؟ ويجيب على هذا السؤال ابن تيمية فيقول :

«من فضّل أحدا من المشايخ على النبي صلى الله عليه وسلم أو اعتقد أن أحدا يستغني عن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، استُتيب فإن تاب وإلا ضُرِبَت عنقه[2]».

وهذا حق، وحكم عادل، لأن من شرط الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم الإيمان بأنه خاتم الرسل والأنبياء، وأفضل الخلق أجمعين، فلا نبي ولا رسول ولا ولي يصل في درجته إلى درجة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ومن اعتقد هذا فقد خالف القرآن والسنة وما عليه السلف الصالح، «وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ[3]» وكونه رحمة للعالمين فإنه يشمل جميع الناس بمن فيهم الأولياء جميعا فرحمته فاضت عليهم وعمتهم جميعا لذلك فهو أفضل منهم جميعا.

وفضل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق «ثابت بالنصوص الدالة على ذلك كقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (آتي باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول محمد ، فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك.

وليلة المعراج رفع درجته فوق الأنبياء كلهم فكان أحقهم بقوله (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات) إلى غير ذلك من الدلائل، كل منهم يأتيه الوحي من الله لاسيما محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن في نبـوته محتاجا إلى غيره ، فلم تحتج شريعته إلى سابق ولا إلى لاحق . . . وهذا

---

(١) القيصري (داود بن محمـود القيصري، مقدمة شرح النصوص ، مخطوط أيا صوفيا رقم ١٨٩٨، كتاب ختم الأولياء ص ١٩٤.

(٢) ابن تيمية، مجموعة الرسائل الكبرى (دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان) م ١، ص ٣١٥ الوصية الكبرى.

(٣) الأنبياء / ١٠٧

بخلاف الأولياء فإن كل من بلغه رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لايكون وليا لله إلا باتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكل ماحصل من الهدى ودين الحق، هو بتوسط محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك من بلغه رسالة رسول إليه لايكون وليا لله إلا إذا اتبع الرسول الذي أرسل اليه[1]».

وما استدل به ابن عربي من قضيتي : «أسرى بدر» و «تأبير النخل» على صحة القول بفضل الولي على النبي ، هو استدلال باطل وفاشل، فلا يناصره في دعواه الباطلة، إذ لعل الله سبحانه وتعالى قد قضى بما كان في هاتين القضيتين مريدا بهذا تأكيد الجانب البشري في الرسول صلى الله عليه وسلم حتى لايعتقد معتقد فيه ما اعتقده النصارى في عيسى ابن مريم عليه السلام.

ولعل الله سبحانه وتعالى أراد بحكمه في هاتين القضيتين تأكيد إرساله سيدنا محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ برسالة الإسلام، وإثبات أن القرآن كلام الله وليس من صنع البشر، وليس من صنع محمد عليه السلام ، ذلك أن قريشا كانت تزعم أن محمدا يدعي الرسالة وأنه يعلمه بشر، فحين اجتهد في قضيتي أسرى بدر وتأبير النخل، ولم يصب في اجتهاده دل هذا على أن القرآن الذي تحداهم به محمد فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه ، ليس من صنع محمد لأن الذي لم يصب في اجتهاده لا يستطيع أن يأتي بمثل هذا القرآن ، الذي أصاب في كل شيء وكان صحيحا في كل قول صدر عنه .

ولعل الله أراد بهذا تعليم المسلمين التريث في الأحكام، ودراسة أي قضية تعرض على أحدهم دراسة وافية حتى يكون الحكم صوابا.

كذلك تعليمَ المسلمين أن كل إنسان في عمله هو خبير به وأدرى بجميع جوانبه، فإذا كان الزارع أدرى بتأبير النخل من محمد لأنه أمر دنيوى، فمحمد أدرى بأمور الدين من هذا ومن ذلك، والناس أدرى بأمور دنياهم.

وهذا لايقدح في جانب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا يقلل من درجته، ولا يجعل عمر أعلى درجة منه كما يدعي ابن عربي، لأن هذه الأمور قضايا دنيوية

---

(١) ابن تيمية، الفتاوي الكبرى ، جـ١١، ص ٢٢٤/٢٢٥ .

تخضع للعلم والمراس والتدريب، ويمكن أن يحصلها أي انسان ـ حتى ولو كان أقل من رسول الله في هذا الجانب ـ بهذه الوسائل الدنيوية .

وما المانع من أن يكون الله قد أراد بهذا أن يعرف الناس بفضل عمر في الإسلام وشدته في الحق، فكما كان شديدا في الكفر قوي البطش بالمسلمين، فهو أيضا في الإسلام قوى البطش بالكفار لا تأخذه في الحق لومة لائم.

ولابن القيم كلام وجيه في هذا المقام ورأي أراه رأيا سديدا وتحليلا صحيحا ، يقول : «وقد تكلم الناس في أي الرأيين كان أصوب، فرجّحت طائفة قول عمر لهذا الحديث (حديث بكاء الرسول وأبي بكر بعد الأخذ بالفداء) ورجحت طائفة قول أبي بكر لاستقرار الأمر عليه وموافقته الكتاب الذي سبق من الله إحلال ذلك لهم، ولموافقته الرحمة التي غلبت الغضب. ولتشبيه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ له في ذلك بإبراهيم وعيسى. ،لتشبيهه لعمر بنوح وموسى، ولحصول الخير العظيم الذي حصل بإسلام أكثر أولئك الأسرى ولخروج من خرج من أصلابهم من المسلمين ولحصول القوة التي حصلت للمسلمين بالفداء، ولموافقة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبي بكر أولا، ولموافقة الله له آخرا حيث استقر الأمر على رأيه، ولكمال نظر الصِّديق، فإنه رأى ما يستقر عليه حكم الله آخرا، وغلَّب جانب الرحمة على جانب العقوبة.

قالوا : وأما بكاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنما كان رحمة لنزول العذاب لمن أراد بذلك عرض الدنيا، ولم يرد ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا أبو بكر وإن أراده بعض الصحابة ، فالفتنة كانت تعم ولا تصيب من أراد ذلك خاصة[1]».

ويرى ابن تيمية أن الولي بحق إذا حصلت له المخاطبات والمشاهدات فإنه بلا شك يدرك أن هذا أقل بكثير مما يحصل للأنبياء. ولا أدل على هذا من عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فإنه كان من المحدثين إذ ثبت في الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال : إنه قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي فعمر، وقال عليه السلام : إن الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه، ومع هذا القدر وهذه المكانة،

(١) ابن القيم ، زاد المعاد في هدى خير العباد، (مؤسسة الرسالة، ط ٣ سنة ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٢م) جـ٣، ص ١١١).

كان عمر يدرك أن ماينزل على النبي من الوحي والملائكة وما يخبر به من الغيب وما يعلِّم المسلمين إياه من الأوامر ليفعلوها والنواهي ليتركوها هو أمر زائد عما يعرفه عمر وما يدركه. بل إنه فوق طاقاته وقدراته، لقد كان عمر يسأل الرسول ويستفتيه ويطلب منه النصيحة، مما يدل على تصديقه، وإيمانه بأنه عليه الصلاة والسلام أعلى منه قدرا ومكانة، ودينا وعلما.

ومثل هذا الشعور والاحساس كان من عمر مع أبي بكر ـ رضى الله عنه ـ فلقد كان عمر ـ بما حصل له من المخاطبة والمكاشفة ـ يعلم علم اليقين أن أبا بكر أعلى منه أخلاقا ويقينا وصدقا ومعرفة بالله تعالى، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يعهدون هذا التقدير من عمر لأبي بكر الصديق رضى الله عنه، فإذا كان هذا حال أفضل المحدَّثين المخاطَبين فكيف حال الآخرين الذين حصلت لهم مخاطبات ومشاهدات، لاشك أنه التسليم بأن الأنبياء في هذه المكاشفات والمخاطبات أعلى مرتبة وقدرا من الأولياء مهما كانوا، فطريق الصوفية لاينتهي بانكشاف جميع ماجاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا بأكثره، بل عامة ما يخبر به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ؛ لايمكن لأبي بكر ولا عمر أن يعلماه فضلا عن غيرهما، إلا عن طريق الرسول المعصوم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأفضل الأولياء أبو بكر وعمر وعثمان وعلّى ونحوهم وليس من هؤلاء من شاهد الرسول ليلة المعراج ولا شاهد الملائكة الذين كانوا ينزلون بالوحي على النبي صلى الله عليه وسلم.

وكيف يكون الأولياء أفضل من الأنبياء، والإيمان بكل ماجاء به النبي واجب ولايجب الايمان بكل مايقوله الولي بل ولايجوز؟ ومن سبَّ نبيا قُتل وكان كافرا مرتدا بخلاف الولى[1].

أما استناد الصوفية في تفضيل الولي على النبي، على أن الله تسمى باسم الولى ولم يسمِّ نفسه باسم النبي، فهذه حجة واهية، إذ لا يلزم على تسمى الله باسم الولى إكساب هؤلاء المتصوفة أفضلية على الأنبياء، وإلا لكان كل من تسمى باسم محمد قد اكتسب أفضلية على غيره من الناس لأنه تسمى باسم خاتم الانبياء وأفضل

(١) ابن تيمية، شرح العقيدة الاصفهانية، المجلد الخامس من: مجموعة فتاوي ابن تيمية (مطبعة كردستان العلمية: مصر، القاهرة سنة ١٣٢٩هـ) ص ١٠٥ ـ ١٠٧.

الرسل، علما بأن هذا الإنسان الذي تسمى باسم الرسول قد يكون ماجنا فاسقا بعيدا عن الدين الحق.

على أن القرآن الكريم قد نسب ولاية إلى الشيطان والكافر والمنافق وسماهم بها، فهل يعني هذا أن الولاية مطلقا شيء بغيض لأن الشيطان قد وصف بها ؟ أم أن هذه الكراهية وهذا البغض خاص بولاية معينة مخصوصة ؟

٢ ـ مرتبة أولى العزم ـ بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ـ نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وقد ورد ذكرهم في قوله تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾[١].

٣ ـ مرتبة بقية الرسل، وهذه تشمل الرسل الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم ـ غير أولى العزم ـ وكذلك الرسل الذين لم يذكرهم الله كما قال سبحانه ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾[٢].

٤ ـ مرتبة الأنبياء الذين ليسوا برسل، وهؤلاء في مرتبة أقل من مرتبة الرسل.

هذه هي مراتب ولاية الخير والأخيار، كما ذكرها ابن تيمية تحت اسم : أولياء الرحمن، وقد سلك الشوكاني مسلك ابن تيمية في هذه الدرجات حين تحدث عن أفضل الأولياء ، إذ يرى أن أفضل الأولياء هم الأنبياء، وأفضل الأنبياء هم المرسلون، وأفضل الرسل هم أولو العزم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم أجمعين، وأفضل أولى العزم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم[٣].

وكان للعلماء نصيب من درجات الأولياء عند الشوكاني، إذ يرى أن العلماء مستحقون للولاية الربانية، والمزية الرحمانية لأنهم الواسطة بين الرب سبحانه وبين عباده لما اختصهم الله به من ميراث النبوة، وهم القائمون مقام الرسل في تعريف عباد الله بشرائع الله عز وجل[٤].

---

(١) الشورى / ١٣

(٢) النساء / ١٦٤

(٣) الشوكاني (محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني ثم الصنعاني) قطر الولي، على حديث الولي ص ٢٢٤.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٩٢

وهـذا الـذي فعله الشوكاني إنما هو استمرار للخط الذي سار عليه السلف الصالح، وإحياء لمنهجهم الصحيح، وتنقية لهذا الطريق الذي هجمت عليه تلك الأفكار المستوردة من هنا وهناك.

لكن مما يلاحظ، أنه إذا كان الايمان هو أهم ركن في الولاية، والإيمان يزيد، وينقص كما هو رأي السلف، لم يكن أصحاب الطبقة الواحدة أو المرتبة الواحدة على درجـة واحدة من الولاية، وإنما يمكن أن يكون في المرتبة الواحدة من هو أعلى في الولاية ومن هو أدنى، وابن تيمية قد أكد هذه الحقيقة حيث قال :

«وإذا كان أولياء الله هم المؤمنـين المتقـين فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته، فمن كان أكمل إيمانا وتقوى كان أكمل ولاية لله، فالناس متفاضلون في ولاية الله عز وجل بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى[1]».

وإذا كان ابن تيمية قد خصص هذا الحكم بأولياء الله، . فإنه يشمل جميع أنواع ولاية الخير والأخيار لأن جميع هذه الأنواع يشترط فيها الإيمان والتقوى.

وللترمذي في كتابه ختم الأولياء، تقسيم آخر مختلف في كثير منه عما قال به السلف الصالح، فهو يرى أن الأولياء :

«على صنفين : صنف أولياء حق الله، وصنف أولياء الله[2]» وحق الله عنده هو شرعه وهو وصاياه وأوامره، وأصحاب هذا الحق هم أولياء الحقوق الإلهية، «والأولون (أولياء حق الله) هم أصحـاب الـولاية العـامـة، والآخرون (وهم أولياء الله) هم أصحاب الولاية الخاصة، فالولي العام أو ولي حق الله هو الذي اتخذ الصدق قاعدة له ومنهجا لايحيد عنه مطلقا، وقاعدة الصدق في الحياة الروحية تظهر آثارها في نطاقين اثنين، في نطاق ظاهري خارجي، وفي نطاق باطني داخلي[3].

والولاية العامة تشمل كل من آمن بالله وعمل صالحا وصدّق المرسلين، والثانية قاصرة على أحباب الله وأصفيائه الذين اجتباهم الحق لنفسه وهداهم به إليه «أولئك

(١) ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ص ٢٤.
(٢) الترمذي، كتاب : ختم الاولياء، ص ١١٧.
(٣) المرجع السابق، مقدمة المحقق ص ١٠٦.

الذين يلجون مجالسه سماحا ويناجونه كفاحا[1]» ! .

ويجمع الترمذي تحت هاتين الولايتين أربع طوائف[2]، وذلك تبعا لقوله تعالى : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ [3]» .

الطائفة الاولى :

وهذه قد أجابت دعوة الله فآمنت لكنها خلطت في عمل الأركان، فبعد أن سارت قليلاووجدت رُوح القربة ظنت أنها قد أصابت القوة كلها فتبجحت في شهوات النفس، وهؤلاء يقال لهم «لكم بما أجبتم حياة القلوب توحيدا» .

الطائفة الثانية :

هذه الطائفة تقدمت في عملها عن الطائفة الأولى، فأخلصت العمل لله، وتطهرت من التخليط الذي وقعت فيه الطائفة الأولى، لكنها بعد أن سارت قليلا عرجت على الطاعات تلتذ بها حتى أدتها إلى العبادة الظاهرة، فبقيت وفي نفسها مَكَامِنُ الفتن، مثل التعظيم لأمرها والإعجاب بنفسها، والكِبْر والتيه، وهؤلاء يجزون جزاء أفضل من جزاء السابقين ـ لكنه ليس بالكامل ـ حيث يقال لهم «لكم بما أجبتم الأركان طاعة وتسليما» .

الطائفة الثالثة :

وهذه زادت في أعمالها عما قامت به كلتا الطائفتين السابقتين، فأخلصت القلوب، وتطهرت من شهوات النفوس، وأعمال الهوى، ومنعت نفسها لذة الحلال،

---

(١) الترمذي ، كتاب : ختم الأولياء ص ١١٢

(٢) المرجع السابق ص ١٢٧

(٣) الأنفال / ٢٤

ولذة الطاعات ولذة العطاء وجاهدت نفسها في تصفية الأخلاق الدنيئة مثل الشح والرغبة والحقد والجفوة، لأن هذه الأمور من قَذَر النفس، لكن هذا الفريق مايزال يجد في نفسه بعض الهنات كالفرح بالأحوال عند الخلْق[1]، والطلب للمنازل العلية عند الله[2]، لذلك كان في مرتبة تسمى مرتبة الصادقين وهؤلاء محلهم في السماء الدنيا عند بيت العزة حيث نزل القرآن جملة واحدة في ليلة مباركة، فهناك محلهم لأنهم عبيد النفوس[3]».

الطائفة الرابعة :

أما الطائفة الرابعة والأخيرة في تقسيم الترمذي ، فهذه كانت أكثر الطوائف عملا وإخلاصا، فهي تقوم بكل ما قامت به الطوائف الثلاثة السابقة لكنها زادت على هذا تقربها إلى الله تعالى بأنواع القُرُبات المختلفة.

وهذا الفريق لكثرة أعماله وإخلاصه فيها ومحبته القرب من الله، أدركته الرحمة الالهية فُرحَم فَطُيِّر بقلبه من مكانه الذي انقطع فيه في لحظة فوقف به في محل القربة عند ذي العرش فوجد رُوح القربة ونسيمها، وتبحبح في فضائها وفي ساحات توحيده[4]، من هنا فإن هذا الفريق يكون في أعلى الدرجات والمراتب إذ يكون في مرتبة تسمى مرتبة الكرام الأحرار، ومحلها في البيت المعمور، في حدود عِلِّيين فوق السماء السابعة، يلِجُونها ثم يتفرقون منها على مراتبهم في عليين إلى العرش عساكر بعضها

---

(١) الأحوال جمع حال، والحال في مصطلح الصوفية حدث داخلي ينفعل له الصوفي أثناء سيره وترقيه الروحي، وهو بهذا الاعتبار مباغت وعارض (ختم الأولياء ص ١١٥) ويقول الجرجاني الحال في اللغة نهاية الماضي وبداية المستقبل، والحال عند أهل الحق معنى يرد على القلب من غير تصنع ولا اجتلاب ولا اكتساب من طرب أو حزن أو قبض أو بسط أو هيئة، ويزول بظهور صفات النفس سواء يعقبه المثل أو لا، فاذا دام وصار ملكا يسمى مقاما ، فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب، والأحوال تأتي من عين الوجود، والمقامات ببذل المجهود، (التعريفات للجرجاني ص ٢٦).

(٢) الترمذي ، ختم الأولياء ص ١٢٢.

(٣) المرجع السابق ١٣٧/١٣٨

(٤) الترمذي ، كتاب : ختم الأولياء ص ١٣٤

فوق بعض حتى ينتهوا إلى محل الأربعين حول العرش[1]، وهؤلاء يقال لهم : «لكم بما أجبتم حياة القلوب والنفوس جميعاً» !!.

والذي أعتقده أن هذه الطبقات وهذه المنازل ـ في أغلبها ـ ليس لها أصل في الدين. وإنما هي من وضع الخيال الصوفي المريض، وإلا فكيف يعقل أو يدرك شرعا ودينا ذلك الفريق الذي يكون عند بيت العزة حيث نزول القرآن الكريم جملة واحدة ؟ وأين هذه النصوص الصحيحة الصريحة الواضحة التي لاتحتاج إلى تأويل أو تلاعب وتقول بهذا السمو الذي يصل بصاحبه إلى بيت العزَّة ؟

وهل يعقل أو يدرك شرعا ودينا كيفية وجود الكرام الأحرار في البيت المعمور حتى انتهوا إلى محل الأربعين صديقا[2] الذين هم حول العرش ؟ ومن أين للترمذي أن حول العرش أربعين صدّيقا وليس عنده نص من القرآن ولا من السنة يقول بهذا الادعاء ؟ الذي نعلمه من الدين الذي جاء به محمد بن عبدالله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الذين حول العرش هم من الملائكة كما قال تعالى : «ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا»[3] يقول ابن كثير تفسيرا لهذه الآية : «يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش الأربعة ومَنْ حوله من الملائكة الكروبيين بأنهم يسبحون بحمد ربهم»[4].

والذي أراه حقا في هذه المسألة أن هذه الأفكار دخيلة على الإسلام، والإسلام منها بَراء، ولو كانت هذه الأفكار عقيدة إسلامية لكان قد بينها الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يَلحق بالرفيق الأعلى، لأن مثل هذه الأفكار بهذه الصورة من أصول الدين التي لايجوز لرسول الله أن يخفيها ولا يبينها للناس طالما أن الله قد أعلمه بها وأوحاها إليه، ولكن لأنها زنيمة مستحلقة لانجد في القرآن ولا في السنة ما يثبتها أو يؤكدها.

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٨

(٢) يقول أحد الصوفية : «قال الحكيم الترمذي إن الله تعالى لما قبض نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم جعل في أمته أربعين صدّيقا بهم قوام الدنيا» بهجة الطائفة، مخطوط برلين رقم ٢٨٤٢، ختم الاولياء ص ٤٧٠.

(٣) سورة غافر / ٧

(٤) ابن كثير، في تفسير القرآن العظيم جـ ٤ ص ٧١

ثم إن هذه الأعمال التي نسبها الترمذي إلى طوائفه تلك، تتعارض مع المنهج الإسلامي الذي يدعو إلى الأخذ من الدنيا بقدر ما يتقوى به الانسان على أمور الحياة الدنيوية ويساعد على القيام بأعمال الآخرة. فإذا كان الترمذي يرى في منع النفس من الحلال، ولذة الطاعات، ولذة العطاء، وسيلة للوصول إلى مرتبة الصادقين الذين يكونون عند بيت العزة، فإن هذا يتعارض مع قول الله تعالى : «يأيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا[1]»، « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ[2]» ، « فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ[3]» كما يتعارض مع قول الله تعالى : « يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ[4]» وقوله تعالى : « وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ[5]» .

على أن أفضل مايكون عليه العبد من درجات هي تلك الدرجة التي منحها الله في كتابه العزيز وأثنى على أصحابها حيث قال سبحانه :

« وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ● وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ● وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ● إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ● وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ● وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ● وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ ●[6]» .

---

(١) البقرة / ١٦٨
(٢) البقرة / ١٧٢
(٣) النحل / ١١٤
(٤) الأعراف / ٣١
(٥) القصص / ٧٧
(٦) الفرقان : ٦٣ ـ ٦٨

وقد ثبت أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد جعل التمتع بحلال هذه الدنيا غاية من غايات الإسلام لما فيه من حفظ للجسد ومساعدة على أداء الفرائض والمندوبات، فقد جاء إليه بعض الصحابة يسألون عن عبادته ـ عليه السلام ـ فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها ، فقالوا هذا رسول الله غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر، ثم تعاهدوا على عبادات أكثر وأشد مما سمعوه عن عبادة الرسول، فقال أحدهم أما أنا فإني لا أتزوج النساء، والآخر قال إنه لايأكل اللحم والثالث حرم على نفسه الفراش، فخرج لهم الرسول وبين لهم أن هذا ليس من الاسلام في شيء، وأن الاسلام الذي جاء به، هو الأخذ من الحلال والتمتع به دون إسراف وتبذير ، روى مسلم في صحيحه، عن أنس ـ رضى الله عنه ـ، أن نفرا من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سألوا أزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن عمله في السر، فقال بعضهم : لا أتزوج النساء، وقال بعضهم لا آكل اللحم، وقال بعضهم لا أنام على فراش، فحمد الله وأثنى عليه فقال : مابال أقوام قالوا كذا وكذا، لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني[1]».

ويخطِّيء ابن الجوزي هؤلاء الذين يحرمون على الناس التمتع بالحلال من هذه الدنيا فيقول : «قد يسمع العاصي ذم الدنيا في القرآن المجيد والأحاديث فيرى أن النجاة تركها (وهذا كما يرى بعض المتصوفة المنحرفين) ولايدري ما الدنيا المذمومة ! فيلبس عليه إبليس بأنك لاتنجو في الآخرة إلا بترك الدنيا فيخرج على وجهه إلى الجبال فيبعد عن الجمعة والجماعة والعلْم، ويصير كالوحش، ويخيل إليه أن هذا هو الزهد الحقيقي، كيف لا وقد سمع عن فلان أنه هام على وجهه، وعن فلان أنه تعبد في جبل . . . ؟ وإنما يتمكن إبليس من التلبيس على هذا لقلة علْمه، ومن جهلِه رضاهُ عن نفسه بما يَعْلم ، ولو أنه وفق لصحبة فقيه يفهم الحقائق لعرَّفه أن الدنيا لاتُذمُّ لذاتها، وكيف يُذم ما منَّ الله تعالى به ؟ وما هو ضرورة في بقاء الآدمي، وسبب في إعانته على تحصيل العلم والعباد من مطعم ومشرب وملبس ومسجد يصلي فيه ؟ وإنما

(١) صحيح مسلم ، م ٥ ج ٩، ص ١٧٥/١٧٦

المذموم أخذ الشيء من غير حِلِّه، أو تناولُه على وجه السَرف لا على مقدار الحاجة [1]».

فإذا كانت هذه دعـوة الإسـلام، وهذا منهجه الذي جاء به القرآن الكريم والسنـة النبـوية الشريفـة، كان منهـج الـترمذي في الولاية منهجا بعيدا عن منهج الإسلام، بعيدا عن منهج السلف وأهل السنة والجماعة.

(١) ابن الجوزي (جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي) تلبيس إبليس (إدارة الطباعة المنيرية ـ دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان) الباب التاسع ص ١٥٠.

كرامات الأولياء :

أنكرت بعض الفرق الاسلامية أن يكون للأولياء كرامات، معتمدين في هذا الإنكار على حجج لاتغني من الحق شيئا، وأدلة لاتقف أمام النصوص الدينية التي اعتمد عليها السلف الصالح في هذا الجانب، لذلك : «أنكر الإمام أحمد رضى الله عنه على من أنكرها (أي الكرامات) وضلله[1]»، وقد ذكر شارح العقيدة الطحاوية هؤلاء المنكرين بالإسم حيث قال : «وقول المعتزلة في إنكار الكرامة ظاهر البطلان ، فإنه بمنزلة إنكار المحسوسات[2]» كما نص عليه السمرقندي في قوله : «الكرامات جائزة خلافا للمعتزلة والأستاذ أبي إسحاق من أهل السنة[3]».

ولقد استند المنكرون للكرامات على عدد من الحجج منها[4] :

١ ـ لو جاز ظهور الخوارق على يد الأولياء لكان في هذا التباس النبي بغيره، إذ الفرق بينهما إنما هو بالمعجزة، والكثير من الناس يعجز عن التفرقة بينهما.

٢ ـ لو ظهرت الكرامات على يد الأولياء لأدى هذا إلى كثرتها تبعا لكثرة الأولياء فلا تكون أمرا خارقا للعادة بل سيكون أمرا معتادا للجميع، والفرض كونها خارقة للعادة، فإذا خرجت عن كونها خارقة لكثرتها نافت المقصود وخالفته.

٣ ـ لو كان ظهور الخارق لأمر آخر غير التصديق لانسد باب إثبات النبوة بالمعجزة لجواز أن يكون ما يظهر من النبي لغرض آخر غير التصديق، كما هو الحال عند من يقول بالكرامة للأولياء.

٤ ـ حين تظهر الكرامة على يد الولي فإنه بهذا يكون مشاركا للنبي في ظهور الخارق على يديه، وهذا يخل بعظيم قدر النبي ووقعه في نفوس الأتباع.

هذه هي الاعتراضات التي أوردها السفاريني حجة لمنكري الكرامات، وهي

---

(١) السفاريني، لوامع الأنوار البهية، جـ٢ ص ٣٩٣

(٢) على بن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص ٤٩٩

(٣) السمرقندي (محمد بن أشرف السمرقندي) الصحائف الالهية (تحقيق د/ أحمد عبد الرحمن الشريف) ، (ط ١ سنة ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م) ص ٤٣٧.

(٤) السفاريني، لوامع الأنوار البهية جـ٢، ص ٣٩٤/٣٩٥.

حجج ضعيفة وواهية يمكن الرد عليها ودحضها، من ذلك :

أ ـ في الإجابة على الاعتراض الأول نقول : لايلزم التباس النبي بالولي، لأن النبي يدعي النبـوة، والولي لا يدعيها ، وحتى لو افترضنا جدلا ادعاء أحد الأولياء للنبوة، فهذا يعني أنه ليس بنبي ولا ولي، وإنما هو مدّع كذاب، وسيُظهر الله كذبه للناس إن عاجلاً أو آجلا، لأن الله لاينصر كاذبا ولا غاشا ولا مضللا، أيضا : «المعجز (الذي هو مع النبي) يكون مع التحدي دون الكرامة فلا يلتبس[1] ».

والسلف الصالح يرى أن ظهور الخارق على يد إنسان ما ليس دليلا على ولايته إذ قد يكـون هذا الخارق الذي ظهر له من باب الاستدراج ، لذلك قال السلف بوجوب تحقق الشروط التي ذكرناها، في هذا الإنسان، فإن تحققت فيه هذه الشروط ثم وجد الأمر الخارق على يديه، كان هذا دليلا على أنه ولي من أولياء الله الصالحين.

قال صاحب لوامع الأنوار البهية : «ولا يلزم من صحة الكرامات ووجودها صدق من يدعيها بدون بينه أو قرائن حالية تفيد الجزم بذلك وإن مشى على الماء وفي الهواء[2] ».

ب ـ وفي الإجابة على الاعتراض الثاني نقول : ليس يلزم أن يكون لكل ولي خارق للعادة ، فهذا أمر لم يقل به السلف الصالح ، بل الذي عليه العلماء أن الخارق يمكن أن يكون مع أحد الأولياء، كما يمكن أن يوجد ولى بلا خارق أبدا، وعدم الخارق علما وقدرة لايضر المسلم في دينه، فمن لم يتكشف له شيء من المغيبات ، ولم يسخَّر له شيء من الكونيات لا ينقصه ذلك في مرتبته عند الله[3].

ج ـ وفي الاجابة على الاعتراض الثالث والرابع نقول : إن الله سبحانه وتعالى يظهر الخارق على يد الولي «إما لتقوية إيمانه، أو لحاجة، أو لإقامة حجة على خصمه

---

(١) السمرقندي ، الصحائف الإلهية ص ٤٣٧

(٢) السفاريني، لوامع الأنوار البهية ، جـ ٢ ، ص ٣٩٣

(٣) زيد بن عبد العزيز بن فياض، الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية (نشر مكتبة الرياض الحديثة ، ط٢ سنة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م) ص ٤٦٦ .

المعارض له في الحق[1] » وفي كل حالة من هذه الحالات تصديق للولي وللنبي ، ذلك أن علماء السلف يرون «أن كرامة الولي وظهور الخارق على يده من (حيث) كونه من آحاد الأمة معجزة للرسول الذي ظهرت هذه الكرامة لواحد من أمته لأنه يظهر بتلك الكرامة أنه ولي ، ولن يكون وليا إلا بأن يكون محقا في ديانته[2] » ، وإذا كانت الكرامة التي تظهر على يد الولى معجزة للرسول الذي يؤمن به هذا الولي كان في هذا التصديق المطلوب .

والصحيح أن كرامات الأولياء ثابتة بالشرع والعقل ، فالعقل يجيز وقوعها ولايرى مانعا يمنع من ذلك ، والشرع قد أثبت وقوع الكرامات ، كما في سورة آل عمران ، من مجيء فاكهة الصيف شتاء لمريم ، ومجيء فاكهة الصيف صيفا لها ، وبقاء أهل الكهف في كهفهم ثلاث مائة سنين ، وتسع سنوات .

وقد تواترت الأخبار ـ تواترت معنويا ـ بكرامات كثيرة للصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وقد ذكرتها كتب الصِّحاح والسنن ، من ذلك :

١ ـ جاء في الصحيحين أن أبا بكر الصديق ذهب بثلاثة أضياف إلى بيته فكان لايأكل لقمة إلا ربا أسفلها أكثر منها ، فشبعوا وصارت أكثر مما كانت فرفعها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء إليه أقوام كثيرون فأكلوا منها وشبعوا .

٢ ـ أرسل عمر بن الخطاب رضى الله عنه جيشا إسلاميا إلى نهاوند بقيادة سارية ، فلما كان عمر يخطب المسلمين جعل يصيح «ياساريةُ : الجبلَ» ، «ياساريةُ الجبلَ» ! ، فقدم رسول الجيش فقال يا أمير المؤمنين لقينا عدُواً فهزمنا فإذا بصوت ينادي : يا ساريةُ الجبل ، ياسارية الجبل فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله .

٣ ـ حينما خرج عبيد بن بشر وأسيد بن حضير من عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ليلة مظلمة أضاء لهما نور مثل طرف السوط ، فلما افترقا افترق الضوء معهما .

٤ ـ حين كذبت أرْوَى بنت الحكم على سعيد بن زيد دعا عليها بقوله : «اللهم إن

---

(١) عبد العزيز ناصر الرشيد ، التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية (ط٢) ، ص ٣٣٦ .

(٢) السفاريني ، لوامع الأنوار البهية ، جـ٢ ، ص ٣٩٦ .

كانت كاذبة فأَعْمِ بصرها واقتلها في أرضها» فعميت ووقعت في حفرة من أرضها فماتت.

٥ ـ وكرامات العلاء بن الحضرمي كثيرة، فقد كان عامل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على البحرين، وكان إذا دعا الله بشيء استجيب له، فقد دعا الله بأن يُسْقَوا ويتوضأون لما عدموا الماء والإسقاء فأجيب دعاؤه، وحين اعترضهم البحر ولم يقدروا على اجتيازه بخيولهم دعا الله سبحانه وتعالى فمروا كلهم ـ هو ومن معه ـ على الماء ولم تبتل سروج خيولهم، كذلك دعا الله أن لايُرَى جسدُه إذا مات، وحين مات بحثوا عن جسده فلم يجدوه وهذا لأن الله تعالى قد استجاب دعوته[1].

وأكتفى بهذا الجزء اليسير من كرامات الأولياء المذكورة في كتب السنن، وما سطره السلف الصالح في كتبهم، وما دونه التاريخ الإسلامي، لكن أود الاشارة إلى أن كرامات الأولياء ترجع إلى ثلاثة أمور هي: العلم والقدرة والغنى، «وإنما ينال العبد من تلك الثلاثة بقدر ما يعطيه الله تعالى فيعلم منه ما علمه إياه، ويقدر منه على ما أقدره الله عليه، ويستغني عما أغناه الله عنه من الأمور المخالفة للعادة المطردة أو لعادة غالب الناس . . . أما المعجزات التي لغير الأنبياء من باب الكشف والعلم؛ فمثل عمر في قصة (سارية)، وإخبار أبي بكر بأن ببطن زوجته أنثى . . . والقدرة مثل: قصة الذي عنده علم من الكتاب، وقصة أهل الكهف ومريم[2]».

---

(١) راجع هذه الكرامات في الفتاوي الكبرى لابن تيمية، جـ١١، ص ٢٧٦ وما بعدها، وكتاب: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ١٤٢ وما بعدها.

(٢) زيد بن عبد العزيز بن فياض، الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية (ط٢ سنة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م) ص ٤٦٤/٤٦٥.

وبعـــد :

فإن السلف الصالح كانوا أفضل منهجا، وأسلم طريقا، وأعلم دينا، فهم قد آمنوا بالولاية والأولياء وكراماتهم، وأثبتوا هذا كله بالقرآن والسنة الصحيحة ، وقد رأينا ـ في عرضنا لرأيهم ـ أنهم لم يغالوا في أفكارهم وآرائهم، بل رأينا من آرائهم أن الولى يمكن أن يخطىء ، وأنه ليس بمعصوم ، كما يدعي هذا الشيعة والمتصوفة .

كذلك فإنهم قد حكموا بالضلالة على من نفى الولاية وكرامات الأولياء، كما ذكرنا هذا عن الإمام أحمد رضى الله عنه.

أيضا كان لرأي السلف الصالح فضل كبير على أهل الإسلام فهم قد وضحوا حقيقة التصوف الحق، وفصلوه عن التصوف الباطل الذي يدعيه البعض، فمن آمن واتقى وسار على هدى الكتاب والسنة النبوية الشريفة فهذا هو الولي، أما من ترك الدين وسار مع الشيطان فهذا ليس من أولياء الله حتى ولو كان يمشي على الماء أو الهواء، فلعل هذا من باب الاستدراج وليس من باب الكرامة.

ولقـد ابتُلِى أهل الريف بمثل هؤلاء الذين يدعون الزهد والتصوف وهم لا يعملون وإنما يتواكلون ويسمون أنفسهم أولياء الله، يلبسون الملابس القذرة الممزقة ويدعون أنهم زُهّاد وعُبَّاد وأولياء الله، يأتون أفعالا صبيانية وجنونية ويتشدقون بأنهم جذبتهم الحضرة الإلهية، فأصبحـوا لايرون ما يفعلون، ولايدركـون ما يأتون ولا يُصلُّون ، فإذا أذن المؤذن للصلاة وناديت أحدهم لحضور الجماعة، قال إنه يصلي في جماعة أفضل من هذه الجماعة وفي مسجد أفضل من هذا المسجد ! إنه يصلي في الحرم المكي أو المدينة المشرَّفة حيث مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ! .

رحم الله السلف الصالح، ونفعنا بعلمهم، وأبقى لنا أثرهم ودينهم وعزتهم ووقارهم وهدانا إلى الصراط المستقيم.

المـراجـــــع

١ ـ ابن تيمية ـ الاستقامة
٢ ـ ابن تيمية ـ شرح العقيدة الاصفهانية
٣ ـ ابن تيمية ـ الفتاوي الكبرى
٤ ـ ابن تيمية ـ الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان
٥ ـ ابن تيمية ـ مجموعة الرسائل الكبرى
٦ ـ ابن تيمية ـ مجموعة المسائل والرسائل
٧ ـ ابن الجوزي ـ تلبيس إبليس
٨ ـ ابن عربي ـ الفتوحات المكية
٩ ـ ابن عربي ـ فصوص الحِكَم
١٠ ـ ابن القيم ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي
١١ ـ ابن القيم ـ الرُّوح
١٢ ـ ابن القيم ـ زاد المعاد في هدى خير العباد
١٣ ـ ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم
١٤ ـ أبو العلا عفيفي ـ التصوف : الثورة الروحية في الإسلام
١٥ ـ الألوسي ـ روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني
١٦ ـ البخاري ـ صحيح البخاري
١٧ ـ الترمذي ـ كتاب ختم الأولياء
١٨ ـ الجرجاني ـ التعريفات
١٩ ـ حيدر الآملي ـ نص النصوص (مخطوط)
٢٠ ـ رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم (المنار)
٢١ ـ الزمخشري ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل.
٢٢ ـ زيد بن عبد العزيز فياض، الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية
٢٣ ـ السفاريني، لوامع الأنوار البهية
٢٤ ـ السمرقندي ـ الصحائف الالهية

٢٥ ـ سيد سابق ـ فقه السنة
٢٦ ـ الشوكاني ـ فتح القدير
٢٧ ـ الشوكاني ـ قطر الولى على حديث الولي
٢٨ ـ الصابوني ـ صفوة التفاسير
٢٩ ـ الطبرسي ـ مجمع البيان في تفسير القرآن
٣٠ ـ الطبري ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن
٣١ ـ عبد الرحمن بدوي ـ تاريخ التصوف الإسلامي
٣٢ ـ عبد العزيز ناصر الرشيد ـ التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية
٣٣ ـ على بن أبي العز الحنفي ـ شرح العقيدة الطحاوية
٣٤ ـ عمار البدليسي ـ بهجة الطائفة (مخطوط)
٣٥ ـ القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن
٣٦ ـ القشيري ـ الرسالة القشيرية
٣٧ ـ القيصري ـ شرح فصوص الحِكَم (مخطوط)
٣٨ ـ مسلم ـ صحيح مسلم
٣٩ ـ النيسابوري ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان
٤٠ ـ الهجويري ـ كشف المحجوب (مخطوط)